لويس سبولفيدا

مجلة الابتسامة

العجوز الّذي كان يقرأ الرّوايات الغراميّة

ترجمة : د. عفيف دمشقية

دار الآداب - بيروت

التحويل لصفحات
فردية والمعالجة
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٣

في الـوقت الّذي كـان فيه المحلَّفـون الّـذين سيمنحـون هـذا الكتاب جائزة (تيغر جوان) يقرأونه في «أوڤييدو» عـلى بُعد آلاف الكيلومـترات من المسـافـة والعـار، كـانت عصـابـة من القتلة المسلَّحين المستأجَـرين من مجرمـين أكبر منهم، من أولئـك الّذين لهم خيّاط ومُقلِّم أظافر ويقولون بأنّهم يتصرّفون باسم «التقدّم»، تضع حدّاً لحياة الرّجل الّذي كان واحداً من أنشط المدافعين عن «أمازونيا» وأحدَ أشهرِ ممثّلي الحركة العالميّة للمحافـظة على البيئـة وأكثرِهم انسجاماً مع النّفس.

إنّك لن تقرأ هذه الرّواية يا «شيكو مانـديس»، أيّها الصّـديق العزيز جدّاً الّذي كان يتكلّم قليلاً ويعمل كثيراً، غير أنّ جائـزة «تيغـر» هذه هي أيضـاً جائـزتك، كـما هي جائـزة جميع النّـاس الّذين سيتابعون السير على الدّرب الّذي خَطَطْتَه، دربِنا الجماعيّ للدّفاع عن هذا العالم، عالِمنا، الّذي هو فريد.

ل. س.

إلى الصّـديق الّـذي بَعُـدت الشقّـة بيني وبينـه، «ميغيـل تْـزانكي»، الممثّل النّقـابيّ الهنديّ «الشُّـواري» عن «شُـومبي» في «نَنْغَرِيتزا» العليا والمُدافع الكبير عن «أمازونيا».

فهو الّذي أوحى إليّ ذات ليلة، بحكاياته الطافحة بالسحـر، ببعض تفاصيل عالمه الأخضر المجهول فاستخدمتها فيـما بعدُ، في حدود أخرى من العالم الاستوائيّ، لبناء هذه القصّة.

ل. س

- ١ -

كانت السماء كَرِشَ حمارٍ منتفخةً تتدلّى كثيراً إلى أسفل مُهـدِّدةً فوق الرّؤوس. وكانت الرّيح الدّافئة تكنس الأوراق المبعثرة وتهزّ بعنف أشجار الموز الهزيلة الّتي تزيّن واجهة دار البلديّة.

وكان سكان «ألْ إيـديليو» القـلائل الّـذين انضمّ إليهم حفنة من المغامرين جاءوا من النّواحي، ينتظرون على الرّصيف دورهم للجلوس على الأريكة المتحرّكة الخاصّة بـطبيب الأسنان الـدّكتور «روبنكوندو لواشامين» الّذي يزاول مخدِّراً كلاميّاً عجيبـاً لتلطيف آلام زبائنه. فقد كان يسأل:

ـ هذا يؤلمك؟

وكان المرضى المتشبِّثون بمِتّكَأَيِ الأريكةِ يفتحون، بمثـابة ردّ، عيوناً واسعة ويرشحون بقطرات كبيرة من العَرَق.

وبعضهم كانوا يحاولون أن يُخرجوا من أفواههم يَدَيِ الطبيب الوَقِحتيْن ليتمكّنوا من الردّ بشتيمة مسّت الحاجة إليها، بيد أنّهم كانوا يصطدمون بعضلاته القويّة وصوته المستبِدّ.

ـ اهـدأْ، عليك اللّعنـة! يَدَيْـك تحت! أعرفُ جيِّـداً أنّ هـذا يؤلمك. ولكنْ مَنِ المُذنب، هيه؟ أنا؟ كلاّ: إنّها الحكومـة! أدْخِل هذا جيّداً في جُمجمتك. الذنْبُ ذنْبُ الحكومة إذا كانت أسنانك

نَخِرة وإذا كنت تتألّم. الذنْبُ ذنْبُ الحكومة.

ولم يكن أمام المساكين إلّا الإذعان وهم يُغْمِضون عيونهم أو يُحرِّكون رؤوسهم.

كان الدّكتور «لواشامين» يكره الحكومة. أيّة حكومة. جميع الحكومات. وإذ كان ابناً غيرَ شرعيّ لمُهاجِر إيبيريّ فقد ورث عنه نفوراً عميقاً من كلّ ما ينتمي إلى السُّلْطة، غير أنّ أسباب كرْهه الحقيقيّة كانت قد ضاعت بالمصادفة خلال حماقات الشّباب، ولم تكن أقواله الهجائيّة الفوضويّة إلّا نوعاً من تُؤْلول معنويّ يُثير استلطاف النّاس له.

كان يسبّ الحكومات المُتعاقِبة بالطّريقة الّتي يسبّ بها الأميركان الآتين أحياناً من مُنشآت «كوكا» البتروليّة، غُرباء رُقعاء يصوِّرون بلا ترخيص أفواه مرضاه المفتوحة.

وعلى بُعْد خطوات كان ملّاحو الزورق «سُكَّر» يُحمِّلون عثاكيل الموز الأخضر وأكياس البنّ.

وعند طرف من الرّصيف كانت تتكدّس صناديق البيرة، والأغواردیانت من صنع «فرونتيرا» والملح، وقوارير الغاز الّتي أُنزلت من السفينة مع بزوغ الفجر.

كان على «السُّكّر» أن يُبْحِر ما إنْ ينتهي طبيب الأسنان من إصلاح الفكوك فيُصعِّد في مياه «نَنْغَرِيتزا» ويتوقّف في «زامورا»

ثمّ يعود بعد أربعة أيّام من الإبحار البطيء إلى مرفأ «ألدورادو» النهريّ.

ولم يكن ينبغي أن يعود الزورق، وهو صندوق قديم عائم تُحرّكه إرادة قائِده الميكانيكيّ وجهودُ عملاقيْن يؤلّفان طاقم الملّاحين والعنادُ السُّلّيّ لمحرّك عتيق يعمل بالديزل، قبلَ نهاية فصل الأمطار الّتي كانت السماء المتلفّعة بثياب الحِداد تُعلن وَشْك هطولها.

كان الدّكتور «روبنكوندو لواشامين» يأتي مرّتين في السّنة إلى «ألْ إيديليو» مثله مثل مُستخدَم «البريد» الّذي لم يكن يحمل إلّا نادراً جدّاً رسالةً إلى أحد السكّان وينقل بشكل أساسيّ في حقيبته البالية أوراقاً رسميّة مُرسَلَة إلى المحافظ أو صوراً عابسة أفسدت الرطوبة ألوانها للحكّام الحاليّين.

لم يكن النّاس ينتظرون من مَقْدَم الزورق شيئاً غير تجديد مؤنهم من الملح والغاز والبيرة والأغواردينت؛ إلّا أنّ وصول طبيب الأسنان كان يُستقبل بارتياح، ولاسيّما من الناجين من الملاريا وقد أضناهم لفظُ حُطام أسنانهم وشاقَهم أن تكون أفواههم خالصةً من الأورمات ليتمكّنوا من تجربةِ واحدةٍ من وجبات الأسنان الاصطناعيّة المرصوفة على بساط بنفسجيّ يُذكّر بلا مراء بالقِرْمز الكارديناليّ.

وإذ كان طبيب الأسنان يسلق بنقده اللّاذع الحكومةَ على

الـدوام فقد كـان يخلّص لِثاتهم من آخـر آثـارهـا الأسنـانيّـة ثمّ يأمرهم بغسل أفواههم بالأغورديانت.

ـ لِنَرَ الآن. كيف تجد هذه؟

ـ إنّها تشدّ عليّ. لا أستطيع إغلاق فمي.

ـ إيه! إنّك تتكلّم على زُمرة من المُرْهَفين! حسناً، نجرّب أخرى.

ـ إنّها تعوم. لو عطست فسوف تسقط.

ـ وما عليك إلاّ أن تتّقي الزكام، يا أبله. افتح فمك.

وكانوا يطيعون أمره.

كانوا يجرّبون عدّة وجبات أسنان وينتهي بهم الأمر إلى الوقوع على الصالحة فيساومون على سعـرها في حـين كان الـطبيب يُعقّم الأخريات بغمسها في قِدْر من الماء المَغْليّ الممزوج بالكلور.

كانت أريكة الدّكتور «روبنكوندو لواشامين» المُتحرّكة مؤسّسةً قـائمة بنفسهـا في نظر سكّـان ضفـاف «زامـورا» و«يـاكـوُرَمْبي» و«نَنْغَرِيتزا».

والحقّ أنّ الأمر كان يتعلّق بمقعـد قديم من مقـاعد الحـلاّقين بقـاعدة ومُتّكـأين مطليّـةٍ بالأبيض اللّمّاع. وكـان ينبغي جمع قـوّة صاحبه إلى قوّة طاقم «السُّكّر» لرفعـه إلى الرّصيف وإقـامته عـلى منصّة مساحتها متر مربّع كان طبيب الأسنان يدعوها «العِيادة».

ـ فـوق «العِيادة» أنـا الّذي يـأمر، عليكم اللّعنـة! هنـا. أنـا مُطاع. وما إن تنزلون حتّى يكـون في وسعكم أن تسمّوني خـالع

أضراس أو منقّباً في الأفواه أو مُدَغدِغ ألسنةٍ أو كلّ ما يدور في رؤوسكم. بل في وسعكم أن تقدّموا لي كأساً.

وكانت سِحَن الّذين ينتظرون دورهم سِحناً مَأْتَمِيّة، ولم يكن الّذين مرّوا بكَلَبَتي الاستئصال أكثر إشراقاً.

والأشخاص الوحيدون الّذين احتفظوا بابتسامتهم حول «العِيادة» هم جماعة «الجيڤارو» وكانوا يراقبون ما يجري وهم مُقَرْفِصون.

جماعة «الجيڤارو». جماعة من السكّان الأصليين الّذين أنكرهم قومهم، «الشُّواريون» الّذين كانوا يعتبرونهم مخلوقات انحطّت وانحلّت بفعل عادات «الأباش»، وبكلام آخر «البِيض».

وكان جماعة «الجيڤارو» اللّابسون أسمال «البِيض» يتقبّلون من غير احتجاج هذا الاسم الّذي ألبسهم إيّاه الفاتحون الإسبان[1].

وقد كان البون شاسعاً بين واحد من جماعة «الشُّوْاريين» مُستكبرٍ فخور يعرف أخفى مناطق «أمازونيا» وبين واحد من جماعة «الجيڤارو» كهؤلاء المجتمعين على رصيف «أَلْ إيديليو» رجاءَ الحصول على قليل من الكحول.

(١) تعني كلمة «جيڤارو»، أو بالأحرى «يبارو»، «المتوحّش» في اللّغة الإسبانيّة [هامش من المترجم عن الإسبانيّة إلى الفرنسيّة]. (المترجم).

كان جماعة «الجيڤارو» يبتسمون وهم يُبدون أسنانهم الحادّة المسنونة بحصىً مُنْتَشَلٍ من النّهر.

وكان طبيب الأسنان يتوعّدهم قائلاً:

ـ وأنتم يا هؤلاء؟ إلاَمَ تنظرون؟ لسوف تمرُّون بهذا في يوم أو في آخر، أيّها القرود.

وكانوا يجيبون وقد ملأهم الحبور بأن يُخاطَبوا:

ـ «الجيڤارو» أسنان عندهم جيّدة. «الجيڤارو» لحم قرد كثير يأكلون[1].

كان يحدُث في بعض الأحيان أن يصرخ مريض صرخةً تُطير صواب العصافير، وأن يُبعد الكَلَبَتيْن بضربة من قبضته وهو يضع يده الحرّة على مقبض ساطوره.

ـ تصرّفْ كرجل أيُّها الأحمق. أَعلمُ أنّ هذا يُؤْلمك، وقد سبق أن قلت لك على مَنْ يقع الذَّنْب. لا تفعلْ إذن كالأشرار. اجلس هنا وأرِنا أنّ لك خُصيتيْن في استِك.

ـ ولكنّك تنتزع روحي يا دكتور. دعني أشرب جرعة.

انتهى طبيب الأسنان من معالجة آخر زبائنه وأطلق زفرة. وقمط وجبات الأسنان الّتي لم تجد لها مالكاً، في بساطها

(١) تعمّدت أن أصوغ هاتين العبارتين بهذا الشكل لمحاكاة الصياغة الفرنسيّة الرّديئة الّتي قُصد بها تمثيل رداءة تعبير «القوم» قياساً إلى المألوف في الكلام (المترجم).

القِرمزيّ، وهو يُطهّر أدواته، ونظر إلى مرور فلوكة أحد «الشُّورايين».

كان السّاكن الأصليّ يجذّف واقفاً في مؤخّرة مركبه. وما إن وصل إلى قرب «السُّكّر» حتّى قام بضربتيْ مجذاف ألصقتاه بالزورق.

وظهر وجه صاحب الزورق المتجهّم من فوق المتراس. وشرح له «الشُّوَاريّ» شيئاً وهو يتقافز بجماع جسده ويبصق من غير توقّف.

جفّف طبيب الأسنان أدواته ورتّبها في حقيبة جلديّة، ثم تناول الوعاء المحتوي على الأسنان المخلوعة وأفرغه في مجرى النّهر.

ومرّ صاحب الزورق و«الشّوَاريّ» بحذائه متوجّهيْن إلى دار البلديّة.

ـ سيكون علينا أن ننتظر يا دكتور. إنّهم يجلبون لنا أبيض ميتاً.

لم يَرُقْه الخبر. فقد كان «السُّكّر» جهازاً غير مريح، ولاسيّما في طريق العودة، حين يكون محمّلاً بالموز الأخضر وأكياس البنّ الخام المتأخّر القطاف ونصف الفاسد.

وإذا فاجأت الأمطار الزورق، وهو أمر يبدو مُحْتَمَلاً لأنّه مرّ أسبوع من التأخير نظراً للتقلّبات الجوّيّة المختلفة، فإنّه ينبغي أن

تتقاسم الحمولة والركّاب وطاقم الملّاحين حِمى ظُلّة واحدة لا مكان فيها يكفي لنصب الفُرُش المُعَلَّقة؛ أضف إلى ذلك أنَّ وجود ميت سيجعل الرّحلة مزدوجة المشقّة.

عاون طبيب الأسنان على إعادة الأريكة المتحرّكة إلى متن الزورق ثمّ رجع إلى طرف الرّصيف. وكان بانتظاره «أنطونيو خوسيه بوليڤار پرْووانيو»، وهو رجل عجوز مازال جسده متوتّراً، ولا يبدو أنه يُقيم وزناً لكَوْنه يحمل اسماً بمثل هذه الشّهرة.

ـ ألَمْ تَمُتْ بعد يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار»؟

وتظاهر العجوز بأنّه يتحسّس إبْطَيْه قبل أن يُجيب.

ـ يبدو جيّداً أنْ لا. فأنا لم أَنْتِن بعدُ. وأنت؟

ـ كيف حال أسنانك؟

وأجاب العجوز وهو يضع إحدى يديه في جيبه:

ـ إنّها معي.

ونشر منديلاً حائل اللّون وأراه وجبة أسنانه.

ـ ولماذا لا تستعملها أيّا الدابّة العجوز؟

ـ سأضعها في الحال. لم أكن آكل، ولا كنت أتكلّم، فما الخير إذن في إبلائها؟

أصلح العجوز وجبة أسنانه وفرقع بلسانه وبصق بسخاء وناوله زجاجته من «الفرونتيرا».

ـ شكراً. أظنّ أنّي فُزت بالأمر عن جدارة.

ـ بالتّأكيد. لقد انتزعت سبعاً وعشرين سنّاً كاملة وكومةً من الأورمات. بيد أنّك لم تبلغ رقمك القياسي.

ـ أمازلت تمسك الحساب؟

ـ لمثل هذا تنفع الصداقة. للتغنّي باستحقاقات الأصدقاء. ولكنْ كان الأمر، على كلّ حال، أفضلَ في السّابق، ألا ترى ذلك؟ يوم كان النّاس لايزالون يَرَوْن مَقْدم المستوطنين الشباب. أتذكر رجل «مانتا» الّذي طلب خلع جميع أسنانه ليكسب رهاناً؟

حنى الدّكتور «روبنكوندو لواشامين» رأسَه لينظّم ذكرياته واستعاد صورة رجلٍ لم يكن فتيّاً جدّاً يرتدي زيّ أهل «مانتا». وكان مُجلّلاً بالبياض وحافي القدمين، ولكنّه كان يلبس مهمازيْن من الفضّة.

كان رجل «مانتا» قد وصل إلى «العِيادة» مصحوباً بحواليْ عشرين شخصاً جميعهم سُكارى بعض الشيء. وكانوا من الباحثين عن الذّهب من غير قاعدة ثابتة. وكان النّاس يدعونهم الحجّاج، ولم يكونوا يدقّقون في الطريقة الّتي يحصولون بها على ذهبهم، أفي الأنهار أم في جيوب الآخرين. ولقد تهالك الرّجل على الأريكة ونظر إليه بسِحنة بلهاء.

ـ ماذا تريد؟

ـ سوف تخلعها لي جميعاً. واحدةً واحدةً. وتضعها هنا، على الطاولة.

ـ افتح فمك.

وامتثل الرّجل، ولاحظ طبيب الأسنان أن عـدداً من أضراسه كان منخوراً، ولكنّـه كان قـد بقي له إلى جـانب ذلك كثـير من الأسنان بعضها مسوّس والآخر سليم.

ـ مازال لديك نصيب وافر منها. هل تملك ما تدفعـه عن كلّ هذه الاستئصالات؟

ولقد تخلّى الرجل عن سِحْنته البلهاء.

ـ طيّب، إليـك يـا دكتـور: الأصـدقـاء الحـاضرون هنـا لا يصدّقونني عندما أقـول لهم إنّي شجاع. وعليـه فقد قلت لهم إنّي سوف أجعلك تنتزع جميـع أسناني، واحـدةً واحدةً، من غـير أن أئِنَّ أو أشتكي. وعـلى هذا تمّ الـرّهان. ولسـوف نتقـاسم عـلى هذا، أنا وأنت، نصفاً بنصف.

ـ سوف تَخْرَأ في جُبّتك عند الثّانية وتُنادي أُمَّك.

هذا ما صاح به واحد من الزمرة فجلجل الجميع بالضحك.

وقال طبيب الأسنان:

ـ لعلّ من الخير لك أن تستمرّ في الشّرب وأن تفكّـر. فأنـا لا أفعل مثل هذه الحماقات.

ـ إليك إذن يا دكتور: إذا لم تَدَعْني أربح رهاني قطعت رأسك بهذا الرفيق.

كانت عينا الرّجل تلتمعان وهو يداعب قبضة ساطوره.

وكان ينبغي بالتأكيد إجراء الرّهان.

ولقد فتح الرّجل فمه وأعاد طبيب الأسنان حسابه. وأعلن عن مجموع قدْره خمس عشرة سنّاً فرصف المراهِن سلسلة من خمس عشرة فِلْذة ذهبيّة فوق البساط القِرمزي الخاصّ بوجبات الأسنان. واحدة عن كلّ سنّ. وغطّى اللاّعبون رُهُنَهم، معه أو ضدّه، بفِلذات أخرى. وأخذ عدد هذه يتزايد عند السنّ الخامسة.

ترك الرّجل الأسنان السّبع الأولى تُخْلَع من غير أن يُحرِّك عضلة واحدة. وكان من الممكن سماع تدويم ذبابة. وعند الثامنة ملأ نزيفٌ فَمَه دماً. ولم يكن قادراً على الكلام، بيد أنّه قام بإشارة يطلب فيها استراحة.

ولقد بصق عدّة مرّات فشكّل الدّم جلطات فوق المنصّة. وجرع جرعة شراب كبيرة جعلته يتلوّى ألماً فوق الأريكة، غير أنّه لم يندّ عنه أيّ أنين؛ وبعد بصقة أخيرة أشار إشارة جديدة إلى طبيب الأسنان بأن يُكمل.

ولدى انتهاء المجزرة لوّح رجل «مانتا»، وقد أصبح أَدْرَدَ تماماً ووجهه منتفخ حتّى أذنيه، بعبارة انتصار تثير الغيظ وهو يقتسم الأرباح مع طبيب الأسنان.

قال الدكتور «لواشامين» وهو يزدرد جرعة كبيرة:

ـ أجل، كانت تلك أيّامَ خيرٍ.

لسع عَرَق قَصَب السُّكّر حلقومه فأعاد الزجاجة وقد ارتسمت على وجهه تكشيره.

وقال «أنطونيو خوسيه بوليڤار»:

ـ لا تُكَشِّر هكـذا يـا دكتـور. إنّ هـذا الشيء يقتـل ديـدان الأمعاء.

بيد أنّه لم يستطيع أن يُكمل.

كانت فُلُوكتان تقتربان وقد نتأ من إحـداهما رأس رجـل أشقر لا حراك به.

- ٢ -

كان المحافظ، وهو الموظّف الأوحد والسّلطة العليا وممثّل نفوذ مُغْرِق في القِدم فيوحي بالخوف، شخصاً بديناً يتصبّب عرقاً بشكل متواصل.

وكان الأهالي يقولون إنّه بدأ يتعرّق في الدّقيقة الّتي وضع فيها قدمه على اليابسة وهو ينزل من «السُّكّر»، وأنّه لم يتوقّف مذّاك عن تجفيف وجهه وعصر مناديله، الأمر الّذي أكسبه لقب «الحلزون».

وكانوا يتهامسون أيضاً بأنّه قبل استقراره في «ألْ إيديليو» كان يشغل منصباً في مدينة كبرى من مدن الجبل، وأنّه أُرْسِل إلى هذا الركن المُهْمَل من «الشرق» عِقاباً له على سرقة بعض الأموال.

وإلى جانب رشح العرق كان أكبر مشاغله يتمثّل في تعهّد مخزونه من البيرة. وكان يُفرغ الزجاجات بجرعات صغيرة وهو جالس في مكتبه، وعلى مهل، لعلمه علم اليقين بأنّه إذا نضب المخزون غدا الواقعُ أشدَّ إقناطاً.

وعندما كان الحظّ يبتسم له فإنّ إمساكه القسريّ كان يُكافأ بزيارة أميركيّ مزوّدٍ بزادٍ جيّدمن الويسكي. فلم يكن المحافظ

يشرب الأغـوارديـانت مثــل سـائـر النّـاس. وكــان يـزعم أنّ «الفرونتيرا» تجلب له الكوابيس فيحيا في وسواس الجنون.

وكان يعيش منذ حِقبة يستحيل تحديدُها مع امرأة من السكّان الأصليين يضربها بوحشيّة ويتّهمها بأنّها قد سحرتـه، وكان جميـع النّـاس ينتظرون اليـوم الّذي تقتله فيـه المـرأة. بـل لقـد كـانـوا يجمعون الرُّهُن.

ومنـذ لحظة نـزوله من الـزّورق، قبل سبعـة أعوام، كـان قد عمل على أن يُبغضه النّاس بالإجماع.

ففد وصل يرافقه هَـوَس بإقـامة ضرائب تـدعمها ذرائـع غير مفهـومـة. ولقـد طمـح إلى بيـع رُخَصٍ للصَّيـد فـي المـاء وعلى اليابسة فوق أراضي لا سبيل إلى حُكمها. ورغب في فرض رسم استخدام على جامعي الحطب الرّطب من أقدم غـابة في العـالم، وإذ ساورته نوبة من التفاني في خدمة المجتمع المدنيّ فقد أمر ببناء خُصّ مـن القَـصَب لحـبس السكـارى المـتنعـين عن دفـع الغرامات، وذلك بتُهمة الإخلال بالنظام العام.

وكان مروره يُثير نظرات الاحتقار وتعرُّقه يُؤَرِّث البغضاء.

وعلى العكس منه فقد كان الموظّف الكبير الّذي سبقه محبوباً. وكان شعاره عِشْ واتـركْ لغيرك أن يعيش. وإليـه يرجـع الفضل في مرور الزّورق وزيارات ساعي البريد وطبيب الأسنان، بيد أنّه لم يشغل وظيفته طويلاً.

فذات مساء قامت مُشادّة بينه وبين بعض المنقِّبين عن الذّهب، وبعد يومين عثر عليه وقد شُجّ رأسه بضربات ساطور والْتَهَمَ النّمل نصف جُثّته.

وظلّت «ألْ إيديليو» عامينْ من غير سلطة تفرض هيبة «ألإكوادور» على هذه الغابة الّتي تظلّ حدودها رؤيةً من رؤى الخاطر قبل أن تُرسل السلطة المركزيّة الشّخص المُعاقَب.

وكلّ يوم اثنين ـ وكانت أيّام الاثنين تشغل باله ـ كان يُرى وهو يرفع العلم على سارية فوق الرّصيف، حتّى كان يومٌ أرسل فيه إعصارٌ الخرقةَ إلى قلب الغابة حاملةً معها كلّ إمكان بتحديد اليوم الصّحيح من الأسبوع، الأمر الّذي لم يكن يُبالي به أحد.

وصل المحافظ إلى الرّصيف. وجفّف وجهه وعنقه بمنديل عصره بعد ذلك. وأصدر أمره برفع الجثّة.

وكانت لشابّ، لم يكن قد تجاوز الأربعين، أشقر ومتين.

ـ أين عَثَرْتُم عليه؟

نظر «الشُّوَاريان» أحدهما إلى الآخر وهما لا يدريان إذا كان عليهما أن يُجيبا.

وزعق المحافظ:

ـ هذان المتوحشّان لا يفهمان الإسبانيّة؟

وحزم أحد البلديّيْن أمره:

ـ أسفل النّهر. على مسيرة يومينْ من هنا.

ـ أرياني الجُرْح.

أدار البلديّ الثّاني رأس الميت. وكانت الحشرات قد التهمت العين اليمنى، إلاّ أنّه كان لايزال يرشح من اليسرى لمعانٌ أزرق. وكان جرح قد اخترقه من الذّقن حتّى الكتف اليسرى. ومن الجرح كانت تبرز بقايا أوردة وديدانٌ شهباء.

ـ أنتما مَنْ قتله.

وتراجع «الشُّوَاريان».

ـ كلا. «شواريون» لا قَتْل[1].

ـ لا تكذبا. لقد صرعتماه بضربة ساطور. الأمر واضح.

أخرج البدين الناضح عرقاً مسدّسه من غمده وصوّبه إلى البلديّيْن المذهولين.

ـ كلا. «شواريون» لا قَتْل.

هذا ما جازف به مرّة أخرى الرّجل الّذي سبق أن تكلّم. وأخرسته ضربة من عَقِب المسدّس.

سال خيط من الدّم من جبين «الشُّوَاريّ».

ـ لا ينبغي حُسْباني أبله. لقد قتلتماه. في أثناء الطريق. سوف توضحان لي ذلك في دار البلديّة. تحرّكا أيّها المتوحّشان. وأنت، أيّها الربّان، استعد لأخذ سجينيْن على متن زورقك.

(١) الصّياغة الشّاذّة مُتعمّدة في هذه العبارة كما في كلّ العبارات الصّادرة عن سكّان البلد الأصليّن. (المترجم).

هزّ صاحب «السُّكّر» كتفيه من غير أن يجيب.

سُمع فجأة صوت «أنطونيو خوسيه بوليڤار»:

ـ عذراً، ولكنَّك تحشر إصبعك في عينك إلى المِرفق. ليس هذا الجُرْحُ جُرْحَ ساطور.

شدّ المحافظ بحنق على منديله.

ـ وكيف تعرف ذلك، أنت؟

ـ أعرف ما أرى.

اقترب العجوز من الجثّة وانحنى وأدار الرّأس ووسّع شقّ الجرح بأصابعه.

ـ هل ترى هذه الحزوز المتوازية؟ العميقة عند الفكّ السطحيّة نزولاً؟ انظر: ليس هناك حزّ واحد، بل أربعة.

ـ وبعدُ؟ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أريد أن أقول إنّ ساطوراً بأربع شفرات لا وجود له. إنّها مخالب. مخالب قطّ برّيّ. لقد قتله سَبُع بالغ. شُمَّ. إنّه مُنْتِن.

نشّف المحافظ نحره بمنديله.

ـ بالطّبع هو مُنْتِن. إنّه تعفُّن حقيقي.

ـ انْحَنِ وشُمَّ. لا خوف من الميّت، ولا من الدِّيدان. تشمَّم الثياب، الشعر، كلَّ شيء.

وإذ غالب البدين تقزُّزه فقد انحنى على الميّت وتشمَّمه، كما يفعل كلب خوّاف، متحاشياً مسّه. وسأل العجوز:

ـ ماذا يفوح منه؟

اقترب المتسكّعون ليتشمّموا هم أيضاً الجُثمان.

وأجاب المحافظ:

ـ لست أدري. أنّى لي أن أعرف؟ الدّم، الدّيدان.

قال أحد المتسكّعين:

ـ إنّها رائحة بَوْل قطّ.

وأوضح العجوز:

ـ بَوْل قطّة، أجل. بَوْل قطّة ضخمة.

ـ لا يُثبت هذا أنّ هذيْن الشخصيْن لم يقتلاه.

كان المحافظ يحاول استعادة هيبته، بيد أنّ اهتمام الأهالي كان مركّزاً على «أنطونيو خوسيه بوليڤار».

عاد العجوز إلى ما كان عليه من فحص الجُثّة.

ـ لقد قتلتْه أنثى. ولابدّ أنّ الذّكَر يطوف قريباً من هنا، وربّما كان جريحاً. لقد قتلته الأنثى ثمّ وَسَمَتْه بالبَوْل فوقه كيلا تأكله السّباع الأخرى فيما هي تبحث عن الذّكَر.

ـ حكايات عجائز خَرِفات. لقد قتله هذان المتوحّشان ثمّ رشّاه بَبوْل قطّ. أو بأحد أخلاطهم القذرة.

أراد البلديّان أن يحتجّا، غير أنّ فوهة المسدّس الّتي لاتزال مصوّبة إليهما جعلتهما يلزمان الصّمت.

وتدخّل طبيب الأسنان:

ـ ولماذا يكونان قد قتلاه؟

ـ لماذا؟ إنّ سؤالك يُدهشني يا دكتور. ليسرقاه. لأيّ سبب آخر يا تُرى؟ إنّ هؤلاء المتوحّشين لا يردعهم شيء.

هزّ العجوز رأسه بحزن ونظر إلى طبيب الأسنان. وفهم هذا أنّ «أنطونيو خوسيه بوليڤار» لا يحسب نفسه مهزوماً وساعده في نشر متاع الميّت على ألواح الرّصيف.

ساعة وبوصلة ومحفظة نقود عامرة بالأوراق النقديّة وقدّاحة تعمل بالغاز وسكّين صيد وسلسلة فضّيّة فيها قلادة صُوِّر عليها رأس حصان. وخاطب العجوز «شُوَارِيّاً» بلغته فقفز البلديّ إلى فلوكته ليناوله كيساً من القُماش الأخضر.

كان في داخله طلقات بندقيّة وخمسة جلود لهِررة برّيّة صغيرة جدّاً. جلود هِررة مُبقّعة. وكانت مغطّاة بالملح وتفوح منها رائحة نتِنة كالّتي تفوح من الميّت.

قال طبيب الأسنان:

ـ حسناً يا «صاحب السّعادة»، يبدو لي أنّ القضيّة قد حُلّتْ.

كان المحافظ ينظرُ، وهو لايزال يتصبّب عرقاً، إلى «الشُّوَارِيْين» والعجوز والمتسكّعين وطبيب الأسنان، ولا يدري ما يقول.

وإذ رأى البلديّان الجلود فقد تبادلا بعصبيّة بعض الكلمات وقفزا إلى فلوكتيْهما.

ـ قِفا! تنتظران هنا إلى أن أقرّر.

ـ دعهما يذهبان. إنَّ لديهما أسباباً وجيهة تدفعهما إلى ذلك. ألم تفهم بعدُ؟

كان العجوز ينظر إلى المحافظ هازّاً رأسه. وتناول بغتة أحد الجلود ورماه إليه. وتلقّاه البدين بتعبير ينمّ عن الاشمئزاز.

ـ فكّرْ يا «صاحب السّعادة». كلّ هذه السنين الّتي قضيتَها، ولم تتعلّم؟ إنَّ هذا الأميركي ابن القحبة قد قتل الصغار وجرح بالتأكيد الذّكر. انظر إلى السّماء، أنت ترى جيّداً أنَّ الأمطار قادمة. والآن تخيّل المشهد. لابدّ أن الأنثى قد ذهبت للقنص لكي تملأ كَرِشَها وتتمكّن من الإرضاع بِدَعَةٍ خلال الأسابيع الأولى من المطر. ولم يكن الصّغار قد فُطِمْنَ، وبقي الذّكر لحراستهنّ. هكذا هو الأمر لدى البهائم، ولابدّ أنَّ الأميركي قد فاجأهنّ في تلك اللّحظة. والآن ها هي ذي الأنثى تطوف مجنونة من الألم. والإنسان هو الّذي تطارده. ولم تجد بالطّبع صعوبة في اتّباع طريق الأميركي. فما كان عليها إلّا أن تشتمّ رائحة الحليب الّتي كانت مُلتصقة بالمنكود. ولقد سبق أن قتلت إنساناً. وأحسّت وذاقت الدّم البشريّ، وفي مُخَيْخها الحيواني المحدود فإنّ جميع النّاس هم قتلة نتاجها: وإنّنا لنملك جميعاً بالنّسبة إليها

الرّائحة نفسها. دع «الشُّوَارِيْين» يذهبا. فعليهما أن يُخطرا أُسْرتيْهما والأُسَر المجاورة. فكلّ يوم يمرّ سوف يجعل الأنثى أشدّ قنوطاً وخطراً، ولسوف تبحث عن الدّم أقرب فأقرب من القرى. يا للأميركيّ القذر! انظر الجلود. إنّها صغيرة جدّاً ولا تصلح لشيء. لقد مارس القنص قبل الأمطار مباشرة، وببندقيّة. انظر الثقوب. هل تدرك ذلك؟ لقد اتّهمتَ «الشُّوَارِيْين» ولكنّنا نعلم الآن أنّ المذنب هو الأميركي. لقد كان يصطاد خارج الموسم، وأنواعاً محظورة. وإذا كنت تفكّر في السّلاح ففي وسعي أن أوكّد لك بأنّه ليس مع «الشُّوَارِيْين» لأنّهما وجدا الجُثمان بعيداً جدّاً عن المكان الّذي مات فيه. ألا تصدّقني؟ انظر إلى الحذاءين! الكعبان ممزّقان. وهذا يعني أنّ البهيمة قد جرّته مسافة كبيرة بعد أن قتلته. انظر تمزّق القميص عند الصدر. من هنا حَمَله السَّبُعُ بمخالبه لجرّه. يا للأميركي المسكين. لابدّ أنّ ميتته كانت فظيعة. انظر الجُرح. لقد مزّق مِخلبٌ وَدْجَه. ولابدّ أنّه احتُضر مدّة نصف ساعة بينما كانت الأنثى تشرب دمه الّذي كان يسيل في فورات كبيرة، ثمّ، يا لها بهيمة ذكيّة، جرّته إلى ضفّة النّهر لمنع النّمل من التهامه. وعندها بالت عليه لِوَسْمه، ولابدّ أنّها كانت قد انطلقت تبحث عن الذّكر عندما عثر «الشُّوَاريان» على الجُثمان. دَعْهما ينطلقا واطلب منهما أن يُخطرا المنقّبين عن الذّهب المُعْسكِرين عند الضفّة. إنّ قطّةً برّيّةً مجنونةً ألماً أَخْطَرُ من عشرين قاتلاً مجتمعين.

لم يُجب المحافظ بشيء وذهب يكتب بلاغاً إلى مركز الشرطة في «ألدورادو».

غدت الريح أكثر حرارة وثقلاً. وإذ كانت دَبِقةً فقد أخذت تلتصق بالجلد وتحمل من الغابة السّكون الّذي يسبق العاصفة. وكانت سدود السّماء على أهبة الانفتاح بين لحظة وأخرى.

ومن دار البلديّة كانت تترامى طقطقة آلة كاتبة، في حين كان الرّجال ينهون تسمير الصندوق المخصّص لنقل الجثّة الّتي كانت تنتظر، مَنْسِيَّة، على ألواح الرّصيف.

وكان صاحب «السُّكّر» يسبّ وهو ينظر إلى السماء الّتي بلون القَطِران ولا ينقطع عن لعن الميّت. وقد حرص على أن ينثر بنفسه طبقة من الملح في الصّندوق، مع علمه بأن ذلك لن يُفيد شيئاً يُذكر.

ولقد كان ينبغي القيام بما يُمارس عادةً بحقّ كلّ شخص يموت في الغابة وتمنع إجراءات قانونيّة غير معقولة من تركه في مضاءة: شقّ الجسد على مداه من العنق حتّى العانة وإفراغه من أحشائه وحشوه بالملح. وكانت تلك هي الطّريقة الوحيدة للاحتفاظ به لائقاً حتّى آخر الرّحلة. بيد أنّ الأمر كان يتعلّق هذه المرّة بأميركي ملعون، وعليه فقد انبغى نقله كما هو،

بالديدان الّتي كانت تزدرد حشاه. ولن يكون عند الإبحار سوى كيس محشوّ بأخلاط عفِنة.

كان طبيب الأسنان والعجوز جالسيْن فوق قوارير الغاز ينظران إلى انسياب النّهر. وكانا يتبادلان من حين إلى آخر زجاجة «الفرونتيرا» ويدخّنان سيجارات من أوراق صلبة، الوحيدة الّتي تقاوم الرّطوبة.

ـ يا للشيطان يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار»، لقد سَدَدْتَ بوزه. لم أكن أعرف فيك موهبة التحرّي هذه. لقد أذللته أمام جميع النّاس، وقد استأهل ذلك. آمل أن يرسل إليّه «الجيڤاريون» حشرة شائكة ذات يوم.

ـ لسوف تقتله امرأته. إنّها تجمع مؤنة من البغض، بيد أنّها لم تحصل بعد على كفايتها منه. إنّ مثل هذه الأمور تحتاج إلى وقت.

ـ اسمع، لقد نسيت تماماً بسبب هذا الميّت الوغد: لقد أحضرت لك كتابيْن.

اتّقدت عينا العجوز:

ـ كتابا غرام؟

أومأ طبيب الأسنان أنْ نعم.

كان «أنطونيو خوسيه بوليڤار پروانيو» يقرأ الرّوايات

الغراميّة، وكـان طبيب الأسنان يَمُـونه بـالكتب كلّما مرّ بـالمكان. وسأل العجوز:

ـ هل هما حزينان؟

ـ وأكّد طبيب الأسنان:

ـ حتّى ذرف الدّموع.

ـ وفيهما أناس يتحابّون إلى الأبد؟

ـ كما لم يسبق أنْ أحبّ إنسان.

ـ ويتأمّلون كثيراً؟

ـ لقد تأكّدت من أنّني لا أستطيع احتمال ذلك.

والحقّ أنّ الـدّكتـور «روبنكـونـدو لـواشـامـين» لم يكن يقـرأ الرّوايات.

وعنـدما نـاشده العجـوز أن يُسدي إليّـه هذه الخـدمة مشيـراً بـوضـوح إلى تفضيله الآلام، وقصص الحبّ الّتي لا تبعث عـلى الأمـل، والنّهايـات السّعيدة فـإنّ طبيب الأسنان قـد أحسّ بـأنّ المهمّة ستكون شاقّة.

وكان يخشى أن يبدو مضحكاً وهو يـدخل مكتبـة من مكتبات «غواياكيل» سائلاً: «أعطني رواية غراميّة حزينة جدّاً وذات آلام رهيبة ونهاية سعيدة...» فلسوف ينظر إليه بالتأكيد وكأنّه عمّةٌ أو خالةٌ عجوز. ووجد بعد ذلك حـلاًّ غير متـوقّع في أحـد مواخـير المرفأ.

لقد كان طبيب الأسنان يحبّ الزنجيّات لأنهنّ قمينات أوّلاً بقول أشياء من شأنها أن تجعل ملاكماً سقط بالضّربة القاضية ينتصب واقفاً على قدميه، ثمّ لأنّهنّ لم يكنّ ينضحنَ عرقاً في أثناء الجِماع.

وبينما كان يُهارش ذات مساء «جوزيفينا»، وهي فتاة من «أسميرالدا» ذات بشرة ناعمة جافّة مثل جلدة طبل، رأى عدداً من الكتب مرصوفة على المنضدة بقرب السّرير. وسأل:

ـ تقرأين؟

ـ أجل، ولكن ببطء.

ـ وما هي كتبك المفضّلة؟

ـ الرّوايات الغراميّة.

بذا أجابت «جوزيفينا». وكانت لها نفس ميول «أنطونيو خوسيه بوليڤار».

ومنذ تلك العشيّة داخلت «جوزيفينا» بين واجباتها وصيفةً ومواهبها ناقدةً أدبيّة. وكانت تختار كلّ ستة أشهر روايتيْن غنيّتيْن بشكل استثنائي بآلام تعزّ على الوصف. وكان «أنطونيو خوسيه بوليڤار پرووانيو» يقرأهما فيما بعدُ داخل كوخه المواجه لـ «النّغَرِيتزا».

تناول العجوز الكتابيْن وتفحّص غلافيْهما وأعلن أنّهما يروقانه.

وفي تلك الأثناء كان الصّندوق يُرفع إلى متن الزّورق والمحافظ يُشرف على العمليّة. وإذ رأى طبيب الأسنان فقد أرسل إليه رجلاً.

ـ يقول لك المحافظ ألاّ تنسى الضرائب.

ومدّ إليه طبيب الأسنان الأوراق النّقديّة الّتي سبق تحضيرها، وهو يضيف:

ـ أيّة فكرة! قل له إنّني مواطن صالح.

عاد الرّجل إلى المحافظ. وأخذ البدين الأوراق النقديّة وأخفاها في أحد جيوبه وحيّا طبيب الأسنان رافعاً يده إلى مستوى جبينه.

وعلّق العجوز قائلاً:

ـ لقد فاض بي، أنا، من هذه الضرائب.

ـ إنّها لسَعَاتٌ بسيطة جدّاً. إنّ الحكومات تعيش من عضّات الأسنان الّتى تمارسها على المواطنين. ثمّ إنّنا نحن نتعامل مع جروْ صغير.

دخّنا بعدُ وشربا وهما يتأمّلان تدفُّق خُضرة النّهر الّتي لا تنتهي.

ـ أراك ساهماً يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار». قلّ لي ما الّذي يُقلقك.

ـ الحقّ معك. لا تعجبني هذه القضيّة. وأنا متأكّد أنّ «الحلزون» يفكّر في فخّ، وأنّه سوف يستدعيني. كلاّ، إنّها لا

تعجبني على الإطلاق. هل رأيت الجرح؟ لمجرّد ضربة من قائمة. البهيمة كبيرة ولابدّ أن يكون طول المخالب خمسة سنتيمترات. إنّ بهيمة مثلها، حتّى وإن أضناها الجوع، لابدّ أن تكون قويّة بشكل مدهش. ثمّ إنّ الأمطار على الأبواب. والآثار تمحّي والجوع يجعل هذه البهائم أشدّ ذكاء.

في وسعك أن ترفض الاشتراك في المطاردة. إنّك عجوز لمثل هذه السّباقات.

ـ لا تظنّ ذلك. تساورني في بعض الأحيان رغبة في أن أتزوّج ثانية. وربّما فاجأتك في أحد الأيّام بأن أطلب إليّك أن تكون إشبيني.

ـ بيني وبينك، ما عمرك يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار»؟

ـ كثير على كلّ حال، ستون سنة حسب الأوراق، ولكنْ ينبغي حُسبان أنّه سبق أنّ كنت أمشي عندما سجّلوني، وعليه فلنقل إنّي أسير إلى عامي السّبعين.

عجّل في وداعهما ناقوس «السُّكّر» الّذي كان يُعلن الرحيل.

وظلّ العجوز على الرّصيف بانتظار أن يختفي الزّورق وقد غيّبه أحد منعرجات النّهر. ثمّ قرّر ألاّ يخاطب أحداً من النّاس بقيّة يومه: ونزع وجبة أسنانه ولفّها بمنديله وتوجّه إلى كوخه وهو يشدّ الكتابيْن إلى صدره.

- ٣ -

كان «أنطونيو خوسيه بوليڤار پرووانيو» يعرف القراءة، غير أنّه لم يكن يعرف الكتابة.

فقد كان يتمكّن أكثر ما يتمكّن من خربشة اسمه لتوقيع ورقة رسميّة، وقت الانتخابات على سبيل المثال، غير أنّه لمّا كانت مثل هذه الأحداث لا تحصل إلاّ بشكل متباعد فقد كان يملك الوقت للنسيان.

كان يقرأ ببطء متهجّئاً المقاطع، مُتَمْتِماً بها بصوت خافت وكأنّه يتذوّقها، وعندما يتمكّن من الكلمة بأجمعها فإنّه كان يكرّرها دفعة واحدة. ثمّ يفعل الشيء نفسه بالجملة بأسرها، وهكذا كان يحوز العواطف والأفكار الّتي تحتوي عليها الصفحات.

وعندما كانت فقرة تروق له بشكل استثنائيّ فإنّه يردّدها عدداً من المرّات يقدّر أنّه لازم لاكتشاف مقدرة اللّغة البشريّة على أن تكون بمثل هذا الجمال.

كان يقرأ مستعيناً بعدسة مكبّرة تأتي بالدّرجة الثانية من الأهمّيّة في ترتيب أعزّ ممتلكاته. مباشرة بعد وجبة الأسنان.

وكان يسكن كوخاً مساحته زهاء عشرة أمتار مربّعة ومؤثّثاً

بشكل إجماليّ: الفراش المعلّق المصنوع من القنّب وصندوق البيرة الّذي يسند السخّان العامل بالكاز ومنضدة عالية جدّاً لأنّه، يوم شعر للمرّة الأولى بآلام في ظهره كان قد أدرك أنّ السنين بدأت تُغالبه وقرّر أن يجلس أقلّ وقت ممكن.

وعليه فقد صنع هذه الطّاولة الطويلة القوائم الّتي كان يستخدمها للأكل واقفاً ولقراءة الرّوايات الغراميّة.

كان المسكن مَحْمِيّاً بسقف من القشّ المضفور وتضيئه نافذة تطلّ على النّهر. وأمام هذه النّافذة كانت الطاولة العالية موضوعة.

وبقرب الباب كانت تتدلّى منشفة مجعَّدة إلى جانب لوح الصّابون الّذي كان يجدّده مرّتيْن في العام. وكان صابوناً جيّداً تفوح منه بقوّة رائحة الشحم ويغسل بشكل جيِّد الثياب والصّحون ومواعين المطبخ والشّعر والجسد.

وعلى الجدار في مواجهة الفراش كانت معلّقة صورةٌ أصلحتها اللّمسات، وهي من عمل فنّانٍ من الجبل وتمثّل زوجيْن شابّيْن.

وكان الرّجل، «أنطونيو خوسيه بوليڤار پرووَانيو» يرتدي سترة زرقاء بديعة الصُّنع وقميصاً أبيض ورباطَ عنقٍ مقلّماً لم يكن له من وجود إلاّ في مُخيّلة الفنّان.

وكانت المرأة «دولوريس أنكرنسيون دلْ سنتيزيموسكرامنتو استوبنيان أوتاڤالو» تتزيّن بحُليٍّ كانت قد وُجدت ولاتزال في هذه

التلافيف المعانِدة من الذّاكرة الّتي تَنْحَفِر فيها مشقّة التوحُّد.

وقد أضاف خِمار من المخمل مَهابةً على الرّأس من غير أن يُخفي كلّيّةً بريقاً نباتيّاً في الشّعر الأسود المفروق فرقيْن لكي ينسدل فوق الظّهر. وكانت تتدلّى من الأُذُنيْن حلقتان مُذَهَّبتان، وكان الجِيد مُطَوَّقاً بعدّة أطواق من عِقْدٍ مُذَهَّبِ الحبّات أيضاً.

كان ما تُبرزه اللّوحة من الصّدر يُبدي بلوزة حافلة بالتطريز حسب طراز «أوتاڤالو»، فيما كان يبتسم فوقها فمٌ صغيرٌ أحمرُ لامرأة.

لقد تعارفا ولديْن في «سان لويس»، وهي قرية من قرى سلسلة جبال «الكورديلييرا» قريبة من بركان «إمبابورا». وكانا في الثالثة عشرة من العمر عندما أعلنوهما خطيبيْن، وما هي إلاّ سنتان حتّى وجدا أنفسهما زوجيْن في أعقاب احتفال لم يكونا قد شاركا فيه حقّاً إذ حُظِّر عليهما أن يخوضا مغامرة كبيرة جدّاً عليهما.

عاش الزّوجان اليافعان أعوامهما الثلاثة الأولى في بيت والد الزوجة، وهو أرمل عجوز جدّاً التزم بأن يُورِثَهما جميع ممتلكاته في مقابل رعايتهما إيّاه وشَمْلِه بصلواتهما وأدعيتهما.

ومات العجوز في حدود عامهما التاسع عشر فورثا بضعة أمتار من الأرض لم تكن تكفي لإطعام أسرة، وبعض الحيوانات الدّاجنة الّتي لم يَقُمْ ثمنها بسداد نفقات الدّفن.

كان الزّمن يمرّ. وأخذ الرّجل يحرث الملكيّة العائليّة ويعمل في أراضي مِلْكيّاتٍ أخرى. وكانا يعيشان على الكَفَاف، والشيء الوحيد الّذي كانا يحصلان عليه بوفرة هو التعليقات الحافلة بالغِيبة الّتي لم تكن تمسُّه هو بل تتحكّم في جميع أحوال «دولوريس أنكرنسيون دِلْ سنتيزيمو سكرامنتو أستوبينيان».

لقد ظلّت المرأة عصيّة على الحَمْل. وكان دمها يعاود كلّ شهر بانتظام بَشِع، ويزيد كلُّ طَمْثٍ من عُزلتها. وكانت العجائز يَقُلْنَ:

ـ وُلِدت عاقراً.

وكانت امرأة أخرى تؤكّد:

ـ لقد رأيت دمها الأوّل. وكان مليئاً ببرقانات ميّتة.

وكنّ يتابعن قائلات:

ـ إنّها ميتة من الداخل. تُرى ما نفع امرأة كهذه؟

وكان «أنطونيو خوسيه بوليڤار پرووانيو» يحاول تعزيتها، وكانا يذهبان من مُطَبِّب إلى مُطبِّب مجرِّبيْن كلّ أنواع الأعشاب والمراهم من أجل الإخصاب.

ولم يكن شيء ليُجدي. فقد كانت المرأة تعود شهراً فشهراً للاختباء في ركن من البيت تاركةً دَفْق العار يسيل.

ولقد قرّرا هجر الجبل يوم لُمِّح للرّجل بتلميح مُخْزٍ:

ـ قد يكون الذّنب ذنبك. عليك أن تتركها وحدها خلال احتفالات «سان لويس».

لقد عُرض عليه إذن أن يصطحب امرأته إلى احتفالات حزيران (يونيو) وأن يُرغمها على الاشتراك في الحفل الراقص والسُّكْر الجماعيّ الّذي كان يبدأ ما إنْ يُديرُ الخوري ظهره. وعندها كان جميع النّاس يستمرّون في الشرب مُتمرّغين على أرض الكنيسة إلى أن يجعل عَرَقُ القصب، «الصافي»، نتاجُ طواحين السكّر السخيّ، الأجسادَ تختلط بتشجيع من الظُّلْمَة.

ورفض «أنطونيو خوسيه بوليڤار پروانيو» المشروع الرّامي إلى أن يكون أباً لابن من أبناء الكرنڤال. وكان قد سمع من جهة أخرى عن خُطّة لعُمران «أمازونيا». فقد كانت الحكومة تَعِد بمساحات شاسعة وعَوْن تقنيّ لقاء إقامة النّاس في الأراضي المُتنازَع عليها مع «البيرو». وربّما صحّح تغيير المُناخ النّقص الّذي كان يعانيه أحد الزّوجيْن.

وقبل احتفالات «سان لويس» بقليل حزما متاعهما الهزيل وأغلقا منزلهما وبدآ الرّحيل.

وقضيا أسبوعين لبلوغ مرفأ «أيلدورادو» النّهريّ. واجتازا بالباص أو بالشاحنة أو بمجرّد السير على الأقدام مُدُناً غريبة العادات مثل «زامورا» و«لُويا» اللّتين كان سكّانهما الأصليّون من

«الساراغورو» يلبسون السواد على الدّوام لإدامة الحِداد على «أتاهووالپا».

وبعد أسبوع جديد من السفر، في فلوكة هذه المرّة، وقد تشنّجت أطرافهما من قلّة الحركة، نزلا على ضفّة أحد منعطفات النّهر. وكان البناءُ الوحيدُ القائم كوخاً رحباً من الصّفيح يقوم مقام مكتبٍ ومخزنِ بِذار وأدوات ويشكّل سكناً للقادمين الجُدُد. وكان ذاك «ألْ إيديليو».

وهناك أُعطيا، بعد شكليّات مقتضبة، ورقة حافلة بالطّوابع تُضفي عليهما رسمياً صفة العامرين. وأُسند إليهما هكتاران من الغابة وزُوِّدا بساطورين ومعازق وبضعة مكاييل من البِذار الّذي التهمه السوس، وبوعدٍ بعَوْن تقنيّ لم يُوفَ به قطّ.

بدأ الزّوجان ببناء كوخ هشّ لهما ثمَّ اندفعا في اقتلاع الأجام. وتمكّنا بالعمل من الفجر إلى اللّيل من اقتلاع شجرة وبعض النباتات المعترشة وبضع نبتات، وفي صباح اليوم التالي رأياها تعود إلى الظهور بقوّة انتقاميّة.

وعندما أقبل موسم الأمطار الأوّل كانا قد استهلكا مُؤَنهما ولم يدريا ما يفعلان. وكان بعض المستوطنين يملكون أسلحةً، وبنادق قديمة، بيد أنَّ سباع الأدغال كانت سريعة وخبيثة. بل إنّ أسماك النّهر بدت وكأنّها تهزأ بهما وهي تقفز تحت أنفيْهما من غير أن تسمح لهما بالتقاطها.

وإذ عزلتهما الأمطار وهذه العواصف المجهولة فقد أضناهما القنوط الناجم عن معرفتهما بأنّهما كان محكوماً عليهما بانتظار معجزة وهما يتأمّلان فيضان النّهر الّذي لا ينتهي وهو يجرف جذوع الأشجار المُقْتَلَعَة وجثث الحيوانات المُنْتَفِخة.

وبدأ المستوطنون الأوائل يموتون. فبعضهم كانوا قد أكلوا ثماراً غير معروفة؛ وانتابت بعضهم الآخر حُمّيات صاعقة؛ وفريق آخر كانوا يختفون في الكَرِش الهائلة لحيّة «بُوَا» عملاقة كانت تهصرهم وتَهْرُسُهم وتنتهي بازدرادهم ببطء فظيع.

وإذ كانا يقاومان بلا جدوى الأمطار الّتي تهدّد مع كلّ وابل جديد بجرف الكوخ، وكانا فريسة للبعوض الّذي يهاجم عند كلّ انفراج في السّماء الجسمَ بأسره، قارصاً ماصّاً تاركاً فوق الجلد بثوراً لاهبة وتحته يرقانات تفتح جراحاً متقيّحة وهي تشقّ طريقها نحو الحرّيّة الخضراء، وكانت تحيط بهما سباع جائعة تطوف في الأدغال وتمنع عيونهما من النوم بضجيجها المُرْعِب، فقد كانا يشعران بالضياع عندما ظهر لهما الخلاص بصورة أناس أنصاف عُراة ووجوههم مصبوغة بلبّ ثمار «الرّوكو» ذات الصبغ الأصفر، وقد زيّنوا رؤوسهم وأذرعهم بأدوات زينةٍ متعدّدة الألوان.

وكان أولئك هم «الشُّواريين» الّذين دَنَوْا لمدّ يد العَوْن لهما وقد أشفقوا عليهما.

وتعلّما منهم القنصَ وصيدَ الأسماك وبناءَ أكواخٍ تثبتُ للعواصفِ وتمييزَ الثمار الّتي تؤكل من الثّمار السامّة؛ وتعلّما على الأخصّ فنّ معايشة الغابة.

وعندما انقضى موسم الأمطار ساعدهما «الشُّواريُّون» في حرث مُنْحدَرات الجبل وهم يُنذرونهما بأنّ ذاك عمل لا رجاء منه.

وعلى الرّغم من تحذيرات السكّان الأصليّين فقد بذرا البذور الأولى ولم يحتاجا إلى كبير وقت لاكتشاف أنّ الأرض كانت شديدة الفقر. فقد كانت الأمطار تغسلها باستمرار بحيث لم تكن المزروعات تتلقّى الغذاء الضروري فكانت تموت من غير أن تُزهِر، لفرط ما أصابها من ضعف أو لأنّ الحشرات قد التهمتها.

وفي موسم الأمطار التالي انزلقت الأراضي الّتي كانا قد ضَنِيا بالعمل فيها، على طول السّفوح منذ هطول أوّل وابل.

ولم تثبت «دولوريس أنكرنسيون دلْ سنتيزيمو سكرامنتو أستوبينيان أوتاڤالو» للعام الثاني ومضت بفعل حمّى شديدة وقد أفنتها الملاريا حتّى العظام.

وأدرك «أنطونيو خوسيه بوليڤار پرووانيو» أنْ ليس في وسعه العودة إلى قريته في سلسلة جبال «الكورديليرا». فالفقراء يغفرون كلّ شيء ما عدا الإخفاق.

وحُكم عليه بالبقاءِ ورفيقُه الأوحد هو ذكرياته. ولقد أراد

الانتقام من هذه المنطقة اللّعينة، من هذه الجحيم الخضراء الّتي أخذت منه حبّه وأحلامه. وكان يحلم بنار كبيرة تحيل «أمازونيا» إلى محرقة كاملة.

واكتشف من خلال عجزه أنّه لم يكن يعرف الغابة بما يكفي لكي يستطيع مَقْتَها بالفعل.

وتعلّم لغة «الشُّواريين» من خلال اشتراكه في ما يقومون به من أعمال القنص. وكانوا يصطادون خنازير «التاپير» وقوارض «الپاكا» «والكابيبه» وخنازير «البيكاري» ذات الأطواق، وهي خنازير برّيّة صغيرة لحومها طيّبة لذيذة، والقرود والطيور والزواحف. وتعلّم استخدام السبطانة[1] الصامتة الفعّالة في قتل الحيوانات، والرمح لالتقاط الأسماك السريعة.

وهجر وهو يخالطهم ما كان يُشْعِره بالخجل بوصفه فلّاحاً كاثوليكيّاً. فكان يسير نصف عارٍ متحاشياً المستوطنين الجُدُد الّذين كانوا ينظرون إليه على أنّه مُخَبَّل.

وكان «أنطونيو خوسيه بوليڤار» الّذي لم يسبق أن فكّر في كلمة «حرّيّة» يتمتّع في الغابة بحرّيّة لا حدّ لها. وكان يحاول العودة إلى مشاريعه بالانتقام، بيد أنّه لم يكن يتمالك عن محبّة هذا العالم

(١) هي أنبوبة مجوّفة تُنْفَخ من داخلها أنواع من القذائف أو النِّبال الصّغيرة المسمومة. (المترجم).

بحيث انتهى به الأمر إلى نسيان كلّ شيء مفتوناً بهذه المساحات الّتي لا حدود لها ولا أسياد.

كان يأكل عندما يجوع. ويختار أشهى الثمار، ويرفض الأسماك الّتي تبدو له بطيئة جدّاً، ويقصّ أثر حيوان من حيوانات الأدغال، وكان مجرّد قتله إيّاه بالسبطانة يضاعف شهوته إلى الطعام.

وإذا رغب في الوحدة مساءً احتمى تحت فلوكة، وإذا كان مُحتاجاً، على العكس، إلى رُفقة سعى إلى «الشُّواريين».

وكان هؤلاء يستقبلونه بكَرَم. ويقاسمونه طعامهم وسكايرهم المصنوعة من الأوراق ويثرثرون ساعات طويلة وهم يبصقون بإفراط حول الأثافيّ الثلاث لموقدهم الدّائم الاشتعال. وكانوا يسألون:

ـ كيف نبدو لك؟

ـ طرفاءَ، مثل قطيع من صغار القرود، ثرثارين مثل ببّغاوات سَكْرى، صارخين كالشياطين.

وكان «الشُّواريون» يتلقّفون هذه التشابيه بقهقهات مُجَلْجِلة ويعبّرون عن فرحتهم بضرطاتٍ رنّانة.

ـ وهناك. من حيث جئت، كيف هو؟

ـ بارد. والصبيحات والعشيّات مُثْلِجة. وعلى المرء أن يرتدي «پونشو» كبيراً من الصوف وقبّعة.

ـ ولذلك فأنتم مُنتِنون. فعندما تتغوَّطون فإنّكم توسِّخون «البونشو» الذّي تلبسون.

ـ لا. في بعض الأحيان على كلّ حال. والمشكلة على الأخصّ هي أنّه مع البرد لا يقدر المرء، مثلكم، أن يستحمّ متى شاء.

ـ وقرودكم أيضاً تملك «بونشو»؟

ـ ما من قرود في الجبل. ولا خنازير «پيكاري» أيضاً. والنّاس في الجبل لا يَقْنِصون.

ـ وماذا يأكلون إذن؟

ـ ما يقدرون عليه. البطاطا والذُّرَة. وأحياناً خنزيراً أو دجاجة في الأعياد. أو خنزيراً من خنازير «الهند» أيّامَ السّوق.

ـ وماذا يفعلون إذا كانوا لا يصطادون؟

ـ يشتغلون. من شروق الشمس إلى غروبها.

ـ يا للحمقى! يا للحمقى!

بذلك كان «الشّواريّون» يختمون حديثهم.

كان هنا منذ خمس سنوات عندما علم أنّه لن يغادر أبداً هذه البلاد. فقد تكفّل نابان بإبلاغه الرّسالة السرّيّة.

ولقد تعلّم من «الشّواريين» أن يتنقّل في الغابة واضعاً باطن قدمه مُسَطَّحاً جيّداً فوق التربة، وعيناه وأُذُناه متنبّهة إلى كلّ الوشوشات، وساطوره في يده على الدوام. وذات يوم، في لحظة غفلة، زرع ساطوره في الأرض لترتيب جِمْله من الأثمار، وفي

اللّحظة الّتي همَّ فيها باستعادته شعر بنابَيْن مُخرِقَتَيْن لحيّة من ذوات الأجراس تعضّان مِعْصَمه الأيمن.

وتمكّن من رؤية الزّاحفة البالغ طولها متراً تبتعد طابعةً على التربة علامات X ـ ومن هنا اسمها المعروف بحيّة X ـ وسرعان ما ثار. فقد قفز شاهراً ساطوره بيده المصابة ومزّق البهيمة إرْباً إلى أن أظلمت عيناه بفعل غِشاء السمّ الّذي لفّهما.

وعلى غير هدى عثر على رأس الزّاحفة، وإذ شعر بأنّ الحياة تفارقه فقد انطلق بحثاً عن بيت «شُواريّ».

ورآه السكّان الأصليّون قادماً وهو يترنّح. ولم يكن قادراً على الكلام لأنّ لسانه وأطرافه وجسده بأسره كانت متورّمة. وكان يُخيَّل إليّه أنّه على وشك أن ينفجر. وتمكّن من إظهار رأس الحيّة قبل أن يفقد رشده.

واستيقظ بعد عدّة أيّام وجسمه مايزال منتفخاً وهو يرتعد من رأسه إلى أخمص قدميه بين نوبتيْ حُمّى.

وأعانته عناية ساحر «شُواري» على استعادة عافيته رويداً.

ونزحت أخلاط من الأعشاب المغليّة السّمّ. ولطّفت حمّامات بالرماد البارد من حدّة الحمّى والكوابيس، وأعاد إليّه نظام غذاء من مخّ القرد وكبده وكُليتيْه عادةَ استخدام ساقيه بعد ثلاثة أسابيع.

وكـان محظوراً عليـه طَوال مـدّة نقاهتـه الابتعـاد عن البيت، وأبدت النّساء صرامة كبرى في العلاج المخصَّص لتنقية جسده.

ـ مازال فيك بعض السّمّ. وينبغي طرده نهائيّاً بـاستثناء جـزء ضئيل يحميك من لَسَعات جديدة.

وكنّ يحشونه بالفاكهة السّخيّة العُصارة ومغليّ الأعشاب وغيره من الأشربة ليجعلنه يَبُول بقوّة.

وعندما رأى «الشُّـواريون» أنّـه استعاد قـواه تمامـاً أحاطـوا به وغمروه بالهـدايا: سبـطانة جـديدة وحـزمة من النَّبْـل وطوق من لآلئ النّهر وحبل مضفور من ريش طائـر الطُّوقـان، وهـم يربّتـونه تربيتات طويلة ليُفهموه أنّه مرّ بتجربة قبول يعود الفضل فيها إلى الآلهة الكيِّسين، الآلهة من الدّرجة الثانية الذين غالباً مـا يختبئون وسط الخنافس أو الدّيدان المُلْتَمِعة عندما يريدون الإيقـاع بالبشر ويتنكّرون بشكل نجوم لتعيين مضاءات كاذبة في الغابة.

وإذا انْتَهَوْا من ذلك فقد صبغوا جسمه بألوان «البُوَا» الـبرّاقة وطلبوا منه أن يرقص معهم.

لقد كان من النّاجِين النادرين من لسعة حيّـة ـ X، وكان من الملائم الاحتفال بالحدث بإقامة «حَفْل الحيّة».

وفي نهاية الاحتفال شرب للمرّة الأولى شراب «الناتيـما»، هذا الشراب اللّـذيذ البـاعث عـلى الهلوسـة والمُحضَّر بِغَـلْي جـذور «الباهواسكـا»، ورأى نفسه في الحلم الّـذي تلا ذلـك وكأنّـه هـو

نفسه قد أصبح جزءاً لا ينفصل من هذه المساحات المُتَبَدِّلة باستمرار، وكأنّه وَبْرَة إضافيّة فوق هذا الجسد الأخضر اللّامتناهي، مُفكّراً وشاعراً كما يفكّر ويشعر «شُواريّ»، ثمّ مُتَقَلِّداً زينة صيّاد مُخَنَّك ومقتفياً آثار حيوان لا يُوصف، بلا شكل ولا حجم، بلا روائح ولا أصوات، بيد أنّه مزوَّد بعينيْن صفراويْن لامعتيْن.

وكانت تلك أمارة لا سبيل إلى فكّ رموزها تأمره بالبقاء، ولقد بقي.

وبعد ذلك بكثير أصبح له صديق، «نوشينيو»، وهو «شُواري» حضر كذلك من بعيد، بعيد جدّاً، حتّى لقد ضاع وصف المنطقة الّتي ينتمي إليّها في روافد «المارانيون». وكان «نوشينيو» قد وصل ذات يوم مجروحاً برصاصة في ظهره تذكاراً لحملةٍ مُمَدِّنةٍ قام بها عساكر من «البيرو». ولقد وُجِد فاقدَ الوعي، شبهَ فارغ الجسم من الدّماء، بعد أيّام من فرار مُنْهِك في فلوكة.

ولقد اعتنى به «شُواريّو» «شومبي» وشَفَوْه وسمحوا له بالبقاء لأنّهم كانوا يملكون الدّم الّذي يملكه.

كان «أنطونيو خوسيه بوليڤار» و«نوشينيو» يطوفان الغابة معاً. وكان «نوشينيو» قويّاً. وإذ كان جذعه ضيّقاً وكتفاه عريضتيْن فقد كان يتحدّى سباحةً دلافين النّهر، وكان رائق المزاج على الدّوام.

وكانا يُرَيانِ وهما يَقُصّان أثَر سَبُع ضخم الجثّة ويستنطقان لون بِرازه، وعندما يصبحان أكيدَيْن من الإمساك بفريستهما كان «أنطونيو» يتمركز في مضاءة، في حين كان «نوشينيو» يجعلها تتقهقر خارج الآجام ويُرغمها على السّير لملاقاة النّبلة المسمومة.

وفي بعض الأحيان كانا يصطادان خنزيراً برّيّاً للمستوطنين، وكان المال الّذي يحصلان عليه لقاءه يتيح لهما شراء ساطور جديد أو كيس من الملح.

وعندما لم يكن يصطاد مع صديقه «نوشينيو» فإنّه كان ينصب الفخوخ للحيّات السّامّة.

فقد كان يُحْسِن الاقتراب منها صافراً بصوت حادّ يُضلّلها عن وجهتها فيجد نفسه في نهاية الأمر وجهاً لوجه معها. وعندها كانت ذراعه تكرّر حركات الزّاحفة حتّى ينتهي الأمر بها وقد ضلّت طريقها ونُوِّمت تنويماً مغناطيسيّاً إلى أن تكرّر هي بدورها الحركات الّتي تحاكي حركاته... وفي هذه اللّحظة كانت ذراعه الثانيّة تتدخّل بشكل حاقد شرس. لقد كانت اليد تقبض فجأة على الحيّة من خلف رأسها وتُكرِهها على بذل السّمّ من نابيْها المغروستيْن في حافّة قَرْعة مجوَّفة.

وعندما تُفرغ الزاحفة قطرتها الأخيرة فإنّها كانت تبسط حلقاتها بلا حَوْل للاستمرار في البغضاء، أو حين كان «أنطونيو خوسيه بوليڤار» يُدرك أنّه لم يعُدْ من جدوى وراء حقدها، فإنّه

كان يقذفها باحتقار بين الأوراق المتشابكة.

كان السُّمُ مرتفع الأثمان، وكان أحد رجال المختبر ممّن يُحضِّرون المصل المضادّ للسموم يأتي مرّتين في السنة لشراء القناني القاتلة.

وكان يكتشف في بعض الأحيان أنّ الزاحفة أسرع منه، ولكنّ الأمر كان سيّان لديه. فقد كان يعلم أنّه سوف ينتفخ كالضفدع، وأنّه سَيهذي بضعة أيّام من الحمّى، بيد أنّه لم يكن من خطر عليه. فقد كان مُحصَّناً ويحلو له التبجُّح أمام المستوطنين وهو يُريهم يديه المغطّاتين بالقروح.

لقد فَوْلَذَت الحياة في الغابة كلّ سنتيمتر من جسده. وكان قد اكتسب عضلات قطّ برّيّ كانت تصلُب بمرور الأعوام. وكانت معرفته بالغابة تعدِل معرفة «شُواريّ». وكان يجيد السّباحة إجادةَ «شُواريّ» إيّاها. ويُتقن اقتفاء أثَرٍ إتقانَ «شُواريٍّ» ذلك. ولقد كان مثل «شُواريٍّ»، بيد أنّه لم يكن «شُواريّاً».

ولذا كان عليه أن يتغيّب بانتظام: فقد شرحوا له أنّه كان من الخير ألاّ يكون بالفعل واحداً منهم. ولقد كانوا يحبّون رؤيته ويستسيغون صحبته، غير أنّهم كانوا يرغبون أيضاً في الإحساس بغيابه وبالحزن لاستحالة محادثته، وبنبضات قلوبهم الفرحة برؤيته عائداً إليهم.

الأمطار والشمس، لقد كانت الفصول تتعاقب. ولقد تعلّم

بمرورها طقوس هذا الشعب وأسراره. وكان يُشارك في التكريم المقدَّم يوميًا للرؤوس المُخْتَزَلة للأعداء الّذين ماتوا ميتة المحاربين الشّجعان، ويُنشِد مع مضيفيه أناشيد الشّكر على الشّجاعة الّتي نُقلت إليهم على هذا الشّكل، والابتهالات من أجل سلام يدوم.

وشارك في المأدبة الفخمة الّتي أقامها الهرمون الّذين كانوا قد قرّروا «الرّحيل»، وإذ نام هؤلاء بتأثير الشيشة والناتيما في غمرة الرّؤى المُهَلْوِسة الّتي فتحت لهم أبواب وجودٍ قادمٍ مُحَدَّدٍ سلفاً فقد عاون في حملهم إلى كوخ ناءٍ وطِلاء أجسادهم بعسل النّحل الشديد الحلاوة.

وفي اليوم التّالي جمع مع الآخرين، وهم يُنشدون أناشيد الشّكر والابتهال المنذورة لمرافقتهم في حياتهم الجديدة، حياةِ الأسماك أو الفراشات أو الحيوانات الوديعة، العظام المُبَيَّضة المُنَظَّفة تنظيفاً تامّاً، وهي البقايا الّتي غدت بعد اليوم عديمة الفائدة، بقايا الهرِمين الّذين حملتهم إلى الحياة الآخرة فكوك النّمل الشرِسة الحاقدة.

ولم يحتجْ قطّ، طَوال إقامته مع «الشُواريين»، إلى الرّوايات لمعرفة الحبّ.

فلم يكن منهم، ولهذا لم يكن في وسعه اتّخاذ زوجة. غير أنّه كان مثلهم، ولذا كان «الشُواري» الّذي يُؤويه عنده في فصل

الأمطار يرجوه أن يقبل إحدى نسائه تشريفاً لعشيرته وبيته.

وكانت المرأة الموهوبة تقوده إلى جُرُف النّهر. وهناك كانت تغسله وهي تُنْشِد أناشيد الشكر وتُزيّنه وتُطيّبه، ثمّ يعودان إلى الكوخ للتهارش فوق حصير وأرجلهما في الهواء وقد دفّأتهما نار الموقد بلطف من غير أن يتوقّفا لحظة عن إنشاد أناشيد الشّكر، وهي قصائد حافلة بالحُنّة تصف جمال جسديْهما وفرحة المتعة الّتي كان سحر الوصف يضاعفها إلى ما لانهاية.

وكان ذلك هو الحبّ الصافي، من غير ما غاية سوى الحبّ للحبّ. من غير امتلاك ولا غَيْرة.

ـ ما من أحد يستطيع الاستحواذ على الصّاعقة في السّماء، وما من أحد يستطيع امتلاك سعادة الآخر في لحظة الهُيام.

هذا ما شرحه له صديقه «نوشينيو».

كان في وسع المرء وهو يرى انسياب «النَنْغَرِيتزا» أن يعتقد بأنّ الزمن قد نسي هذه الأطراف من «أمازونيا»، إلّا أنّ الطّيور كانت تعلم أنّ ألسنة قويّة آتية من الغرب كانت تتقدّم وهي تنقّب في جسد الغابة.

كانت آلات ضخمة تشقّ طرقاً، وكان على «الشُّواريين» أن يضاعفوا من تحرّكهم. فلم يكونوا يقيمون بعد اليوم أكثر من ثلاث سنوات في الموضع نفسه قبل الانتقال ليُمكّنوا الطبيعة من إعادة تشكُّلها. وكانوا عند تبدّل كلّ فصل يفكّكون أكواخهم

ويستعيدون عظام موتاهم للابتعاد عن الغرباء الّذين أخذوا يستقرّون فوق ضفاف «النّنْغَرِيتزا».

وأخذ يتضاعف عدد المستوطنين الّذين اجتذبتهم وعود جديدة بتربية المواشي وقطع نباتات الغابة. وحملوا معهم أيضاً الكحول الخالي من كلّ طقس احتفالي، ومن هنا انحلال الّذين هم الأضعف. واستفحل على الأخصّ طاعون الباحثين عن الذّهب، وهم أفراد لا يملكون أي وازع أخلاقي، وقد جاءوا من جميع الآفاق ولا هدف لهم سوى الإثراء السريع.

وجعل «الشُّواريون» يتحرّكون نحو الشرق بحثاً عن حميميّة الغابات الّتي يصعب اختراقها.

وذات صباح أخطأ «أنطونيو خوسيه بوليڤار» طلقة سبطانة وأدرك أنّه بدأ يشيخ. وبالنّسبة إليّه أيضاً كانت لحظة الرّحيل تقترب.

وعزم على الاستقرار في «ألْ إيديليو» والعيش فيها بما يكسب من الصّيد. وكان يعلم أنّه عاجز عن أن يحدّد بنفسه ساعة موته وأن يدع النّمل يلتهمه. وحتّى لو تمكّن من ذلك فسوف يكون احتفالاً كئيباً.

فلقد كان مثلهم، بيد أنّه لم يكن منهم، ولن يقام له حفل، ولن يتمّ رحيله وسط الهلوسات.

وإذ كان منهمكاً ذات يوم في بناء فلوكة أرادها أن تقاوم كلّ

محنة فقد سمع انفجاراً آتياً من أحد متفرّعات النّهر، وكان ذلك علامة عجّلت برحيله.

وهرع إلى الموضع الّذي ترامى منه الصوت ووجد فيه جماعة من «الشّواريين» يذرفون الدّموع. وأروه كتلة الأسماك الميّتة الطافية على صفحة الماء وزمرة الغرباء المسدّدين أسلحتهم النّاريّة فوق الشاطئ.

كانوا زمرة من خمسة مغامرين نسفوا السدّ الحاجز لأحد مفارخ السمك ليشقّوا مَعْبَراً وسط المجرى.

ولقد حدث كلّ شيء بسرعة فائقة. فإذ أثار مقدم «الشّواريين» أعصاب «البيض» فقد أطلقوا النّار وأصابوا اثنين من السكّان الأصليين ولاذوا بالفرار في مركبهم.

وعلم أنّ «البيض» كانوا من الهالكين. فقد سلك «الشّواريون» درباً مختصراً وتربّصوا بهم عند حافّة مضيق وبلغ النُّبل المسموم فرائسه بسهولة. ومع ذلك فقد تمكّن أحد «البيض» من القفز والسباحة إلى الضفّة المقابلة وغاب في كثافة الغابة.

وتوجّب بادئ الأمر الاهتمام بـ «الشّواريّيْن» المُصابيْن.

وكان أحدهما قد مات إذ انتزعت الرّصاصة رأسه وكأنّها أُطلقت عليه مباشرة، وكان الثّاني يُحْتَضَر وقد انشقّ صدره.

وكان هذا صديقَه «نوشينيو». وهمس «نوشينيو» في تكشيرة ألم وهو يشير بيد مرتعشة إلى قرعة السَّمّ:

ـ يا لها طريقةً قذِرة للرّحيل. لن أمضي بسلام يا أخي. فما لم يصطكّ رأسه بَوتَدٍ فسأذهب مثل ببّغاء عمياء للاصطدام بالأشجار. ساعدْني يا أخي.

وأحاط به «الشُّواريون». لقد كان الوحيد العارف بعادات «البيض»، وكانت كلمات «نوشينيو» الواهنة تقول له إنَّ ساعة وفاء الدَّيْن الّذي يدين به لـ«الشُّواريين» يوم أنقذوه من لسعة الحيّة، قد أزفت.

وبدا له ذلك عادلاً فتسلّح بسبطانة وقطع النّهر سباحة للانطلاق في أوّل عمليّة صيد إنسان يقوم بها.

ولم يلقَ صعوبة في العثور على الأثر. فقد ترك الباحث عن الذّهب في غمار قنوطه بصمات هي من الوضوح بحيث لم يكن في حاجة معها إلى التفتيش.

واكتشفه بعد بضع دقائق مذعوراً أمام حيّة «بُوا» نائمة.

ـ لماذا فعلتم ذلك؟ لماذا أطلقتم النّار؟

وسدَّد الرجل بندقيّته إليه.

ـ «الجيڤارو»؟ أين هم «الجيڤارو»؟

ـ على الضفّة الأخرى. إنّهم لا يلاحقونك.

وإذ أفرخ روع الباحث عن الذّهب فقد أنزل سلاحه.

فاستغلّ «أنطونيو خوسيه بوليڤار» ذلك وأطلق عليه نبلة من السبطانة.

وأخطأ طلبته. فلقد ترنّح الباحث عن الذّهب من غير أن يسقط، ولم يترك له فرصة سوى الالتحام جسداً إلى جسد.

كان الرّجل قويّاً. ومع ذلك فقد تمكّن من انتزاع بندقيّته منه.

لم يكن قد سبق له أن أمسك بسلاح ناريّ، غير أنّه إذ رأى يد الرّجل تتلمّس بحثاً عن ساطوره فقد وجد بلا تردّد الموضع الّذي ينبغي أن يضغط عليّه بإصبعه، وأحدث الدويّ هبّة طيور مذعورة.

وإذ أدهشته قوّة الاختراق فقد اقترب من الرّجل. وكان هذا قد تلقّى الطلقة المزدوجة في صميم بطنه فأخذ يتلوّى من الألم. ومن غير أن يحفل بصراخه جرّه من عقبيه إلى النّهر، وأحسّ منذ السّبَحات الأولى بأنّ المنكود قد مات.

كان «الشُواريون» ينتظرونه على الضفّة الثانية. وساعدوه في الخروج من الماء، بيد أنّهم ما إنْ رأوا الجثّة حتّى انخرطوا في غناء رثائيّ لم يستطع تفسيره.

لم يكونوا ينتحبون من أجل الغريب. بل كان ذلك من أجل «نوشينيو».

ولم يكن «أنطونيو خوسيه بوليڤار» واحداً منهم، بيد أنّه كان

مثلهم. وبالتّالي فقد كان عليه قتل الرّجل بنبلة سبطانة مسمومة بعد أن يفسح له في مجال العراك بشجاعة، وإذ يشلّه السّمّ عندئذٍ فإنَّ جماع قوّته كان سيظلّ في تعبير وجهه المركَّز إلى الأبد في رأسه المُخْتَزَل، وأجفانُه وأنفُه وفمُه مَخِيطةً لكيلا يستطيع فراراً.

ولكن كيف السّبيل الآن إلى اختزال هذا الرّأس وحياته متجمِّدة في تكشيرة هلع وألم؟

إنَّ «نوشينيو» لن يذهب من جرّاء غلطته هو. وسيبقى «نوشينيو» مثل ببّغاء عمياء تصطدم بالأشجار مُثيرةً حقد الّذين لم يعرفوه وهو يصطكّ بأجسادهم معكِّراً أحلام حيّات «البُوا» النائمة، مُسبِّباً فرار طرائد الطير بطيرانه على غير هدى.

لقد نزل به العار، وبذا فإنّه مسؤول عن شقاء صديقه الأبديّ.

ومن غير أن ينقطعوا عن البكاء أعطوه فلوكة. ومن غير أن ينقطعوا عن البكاء قبّلوه وحمّلوه بالمُؤَن وقالوا له إنّه، منذ هذا التّاريخ، لا أهلاً به ولا سهلاً. ولسوف يكون في وسعه أن يمرّ ببيوت «الشُّواريين» إلاّ أنّه لن يملك الحقّ في التوقّف فيها.

ودفع «الشُّواريون» الفلوكة إلى المجرى ثم مَحَوْا آثارها على الشطّ.

- ٤ -

بعد خمسة أيّام من الإبحار وصل «أنطونيو خوسيه بوليڤار» إلى «ألْ إيديليو». وكان المكان قد تغيّر. ففي مواجهة النّهر كان يقوم شارع من عشرين بيتاً كان آخرها، وهو أكبر قليلاً منها، يحمل فوق بابه لافتة صفراء عليها كلمة «البلديّة».

وكان هناك أيضاً رصيف خشبيّ تحاشاه متتبّعاً المجرى حتّى وضعه التّعب في المكان الّذي بنى فيه كوخه.

وفي البداية كان الأهالي، وهم يرونه يوغل في الغابة مسلّحاً بـ«الرمنغتون» من عيار ١٤، إرثه من الرّجل الوحيد الّذي قتله - بل أساء فوق ذلك قتله - ينظرون إليه نظرتهم إلى متوحّش ويتحاشَوْنه. ولكنّهم سرعان ما اكتشفوا ما كان يمثّله لهم من يُمْن الطّالع وجودُه بينهم.

فقد كان المستوطنون والباحثون عن الذهب جميعاً يرتكبون في الغابة أخطاء غبيّة. كانوا يخربونها بلا أدنى حيطة، وبذلك غدت بعض الحيوانات ضارية.

كانوا، لكي يكسبوا أحياناً بضعة أمتار من الأرض، يقتلعون نباتات الغابة كيفما اتّفق حارمين عُقاباً من وكرها فكانت تثأر لنفسها بقتل إحدى بغلاتهم، أو يخطئون أحياناً أخرى في مهاجمة

الخنازير المطوّقة في موسم توالدها، الأمر الّذي كان يحوّل تلك الخنازير البرّيّة الصّغيرة إلى وحوش مرهوبة الجانب. ثمّ كان هناك البيض الآتون من المنشآت البترولّية.

وكان هؤلاء يصلون في زُمر صاخبة حاملين أسلحة تكفي لتسليح فرقة عسكريّة بأكملها، ويدخلون الغابة وهم على أتمّ الاستعداد لإطلاق النّار على كلّ ما يتحرّك. وكانوا ينقضّون على القطط البرّيّة من غير أن يبالوا بمعرفة ما إذا كانت صغاراً أو إناثاً حبالى، ثمّ يتصوّرون أمام عشرات الجلود المُسَمَّرة على ألواح من الخشب قبل أن يعودوا أدراجهم.

كان البيض يرحلون والجلود تبقى لتُنتِن إلى أن تقذف بها يدٌ مُحْسِنَةٌ إلى النّهر، وكانت القطط البرّيّة الناجية تثأر بإفراغ أحشاء بعض الثيران الهزيلة.

وكان «أنطونيو خوسيه بوليڤار» يحاول وضع حدّ لعمل المستوطنين الّذين كانوا يُدَمِّرون الغابة لإقامة ذلك العمل الفريد الخاصّ بالإنسان المتمدّن: الصحراء.

إلّا أنّ الحيوانات بدأت تَنْدُر. وغدت الأجناس الباقية على قيد الحياة أكثر مَكْراً، وحذت البهائم حذو «الشُّواريين» وغيرهم من ذوي الثّقافات الأمازونيّة في الإيغال بدورها في أعماق الغابة في نزوح لا يقاوم نحو الشّرق.

واكتشف «أنطونيو خوسيه بوليڤار پروانيو»، وكان وقته قد

أضحى بعدُ ملكه، أنّه يعرف القراءة، وذلك في الوقت الّذي بدأت فيه أسنانه تفسد.

وبدأت هذه النّقطة الأخيرة تشغل باله عندما أدرك أنّ فمه كان ينفث رائحة نتِنة وأنّه كان يستشعر آلاماً مقيمة في فَكَّيْه.

وكان كثيراً ما حضر جلسات الدّكتور «لواشامين» نصف السنويّة، غير أنّه لم يكن قد تخيّل قطّ نفسَه جالساً على أريكته، حتّى كان اليوم الّذي غدت فيه آلامه لا تُطاق فلم يستطع سوى الصّعود بدوره فوق «العِيادة».

ـ الأمر بسيط يا دكتور. لم يبقَ لي كثير. فقد نزعت بنفسي الأسنان الّتي كانت تزعجني كثيراً، ولكنّني لم أفعل بتلك الّتي في العمق، فالأمر صعب جدّاً. نظِّف فمي إذن وبعد ذلك نناقش ثمن إحدى وجباتك الجميلة.

في هذه المرّة كان «السُّكّر» قد أحضر موظّفيْن من موظّفي «الدولة» استقرّا خلف طاولة تحت ظُلّة دار البلديّة، الأمر الّذي حمل النّاس على النّظر إليهما على أنّهما جابِيَيْ ضريبة لم يسبق أن أُعْلِن عنها.

وأمام قلّة تحمُّس الأهالي رأى المحافظ نفسه مضطراً إلى الاستنجاد بالقَدْر القليل من قوّة الإقناع الّتي بقيت له لجرّ المعاندين إلى الطاولة الحكوميّة. وهناك كان مبعوثا السلطةِ النِّكدان يجمعان اقتراعات مواطني «ألْ إيدليو» السرّيّة من أجل

الانتخابات الرئاسيّة الّتي ينبغي أن تجري في الشهر التّالي.

مرّ «أنطونيو خوسيه بوليڤار» مثل كلّ النّاس من أمام الطاولة. وسُئِل:

ـ هل تعرف القراءة؟

ـ لم أعُدْ أذكر.

ـ سوف نرى. ما المكتوب هنا؟

ـ السّـ ـيّـ ـد ـ السيّد الـ ـمُـ ـرشّـ ـح ـ المُرشّح.

ـ حسناً، أرأيت: لك الحقّ في الانتخاب.

ـ الحقّ في ماذا؟

ـ في الانتخاب ـ بالاقتراع العام والسرّيّ ـ لكي تختار ديمقراطيّاً بين المرشّحين الثلاثة لتقلُّد أعلى منصب في الحكم. هل فهمت؟

ـ لم أفهم شيئاً البتّة. كم سيُكلّفني، هذا الحقّ؟

ـ لا شيء. مادام حقّاً.

ـ ولمن عليّ أن أقترع؟

ـ للّذي سيكون الرّئيس. لـ «صاحب السّعادة» مرشّح الشّعب.

واقترع «أنطونيو» للمنتصِر وتلقّى زجاجة «فرونتيرا» لقاء ممارسته حقّه.

لقد كان يُحسِن القراءة.

وكان ذلك أهمّ اكتشاف في حياته. إنّه يُحسِن القراءة. ويملك

الترياق الشافي من سمّ الشيخوخة الهائل. إنّه يُحسِن القراءه. غير أنّه لم يكن يملك شيئاً للقراءة.

وقَبِل المحافظ، على مضَض، أن يُعيره بعض الصّحف القديمة الّتي كان يحتفظ بها علانية بوصفها أدلّة على صِلاته المميّزة بالسّلطة المركزيّة، غير أنّ «أنطونيو خوسيه بوليڤار» ألفاها بلا فائدة.

ولم يكن نسخ مقاطع من الخُطب الّتي ألقيت في «الكونغرس» وفيها يزعم «بوكَرَم» المحترم بأن مُمثّلاً محترماً آخر لم يكن يملك شيئاً في بِنطاله؛ ولا المقال الّذي يُقدِّم جميع التفاصيل عن الطريقة الّتي قتل بها «أرتيميو ماتولانا» أفضل أصدقائه بعشرين طعنة من خنجر، ولكنْ من غير حقد؛ ولا الحادثة الّتي تفضح الغرور المتلاشي لدى داعمي «مانتا» الّذين خَصَوْا حَكَماً داخل ملعب، لم يكن ذلك كلّه ليبدو له محرِّضاً كافياً لإقناعه بمواصلة القراءة. فجميع هذا كان يحدث في عالم بعيد من غير مراجع تجعله مفهوماً منه، ولا ما يثير فيه الرّغبة لتصوُّره.

وذات يوم أنزل «السُّكّر»، فيما أنزل من صناديق البيرة وقوارير الغاز، كاهناً مسكيناً مبعوثاً أرسلته السلطات الإكليركيّة لتعميد الأطفال ووضع حدّ لتعايش الرّجال والنساء من غير زواج. وبعد ثلاثة أيّام لم يكن الأخ قد عثر على شخص مستعدّ لأنْ يقوده إلى مساكن المستوطنين. وإذ لاشت قواه مثلُ هذه

اللّامبالاة من زُبُنه، فقد ذهب للجلوس على الرّصيف بانتظار إقلاع الزّورق الّذي سينتشله من هذا المكان. ولكي يقتل ساعات الهزيمة فقد أخرج كتاباً قديماً من تحت جبّته وحاول القراءة، بيد أنَّ الهلع شلّه.

ولقد فتن هذا الكتاب الّذي بين يدي الخوري «أنطونيو خوسيه بوليڤار». وانتظر بفارغ الصّبر أن يغالب النّعاس الخوري فيُفلت من يده.

وكان ذلك سيرة ذاتيّة للقدّيس «فرانسوا» تصفّحها على عجل وهو يستشعر أنّه يقترف نوعاً من سرقة.

وتهجّى المقاطع، ثمّ جعله تعطّشه إلى إدراك كلّ ما كان الكتاب يتضمّنه في صفحاته يُكرّر بصوت خافت الكلمات الّتي كانت تشكّلها تلك المقاطع.

واستيقظ الكاهن وراقب مغتبطاً «أنطونيو خوسيه بوليڤار» وقد دسّ أنفه في كتابه. وسأل:

ـ أهو مُشوِّق؟

ـ اعذرني، يا صاحب السّيادة. ولكنّك كنت نائماً ولم أُرِدْ إزعاجك.

وكرّر الكاهن:

ـ أيهمّك هذا؟

وأجاب بحياء:

ـ لكأنّه بتحدّث بشكل خاص عن الحيوانات.

ـ لقد كان القدّيس «فرانسوا» يحبّ الحيوانات. وجميع مخلوقات الله.

ـ أنا أيضاً أحبّها. بطريقتي. أتعرف القدّيس «فرانسوا»؟

ـ لا. لم يهبني الله هذه الفرصة. لقد مات القدّيس «فرانسوا» منذ أمد طويل. أعني أنّه غادر هذه الحياة الدّنيا ليذهب إلى جوار «الخالق» للتمتّع بالحياة الأبديّة.

ـ وكيف تعرف ذلك؟

ـ لأنّي قرأت الكتاب. وهو واحد من الكتب الّتي أُؤثرها.

ودلّل الكاهن على أقواله بتقبيل الغلاف المهترئ. وكان «أنطونيو خوسيه بوليڤار» يُصغي إليّه بحبور ويحسّ بعضّة الرّغبة وقد أخذت تَنْشَب.

ـ أقرأت كثيراً من الكتب؟

ـ عدداً منها. ومن قبل، حين كنت شابّاً ولم تكن عيناي قد تعبتا، كنت ألتهم كلّ الكتب الّتي تقع تحت يدي.

ـ أتتحدّث جميع الكتب عن القدّيسين؟

ـ لا. في العالم ملايين ملايين الكتب. في جميع اللّغات وكلّ الموضوعات، بما في ذلك عدد من الّتي لا ينبغي أن يعرفها النّاس.

لم يفهم «أنطونيو خوسيه بوليڤار» هذه المُعْضِلة الخاصّة

بالرّقابة. وواصل النّظر إلى يَدَيِ الكاهن، وهما يدان سمينتان بيضاوان، فوق الغلاف الأسود.

ـ عمَّ تتحدّث الكتب الأخرى؟

ـ لقد قلت لك. عن عدد كبير من الأمور. عن المغامرين، عن العلم، عن حياة أُناس أفاضل، عن التقنيّة، عن الحبّ...

وشاقته هذه اللّفظة الأخيرة، الحبّ، فهو لا يعرف منه إلّا ما تقوله الأغاني، ولاسيّما أغاني «البازيلّو» الّتي يغنّيها «خوليتو يراميلّو» الّذي كان صوته القادم من أحياء «غوياكيل» الفقيرة يُفلت أحياناً من مذياع يعمل بالبطاريّات ويبعث الأسى في قلوب النّاس. وكانت تلك الأغاني تقول إنّ الحبّ مثل لسعة زنبور ما من أحد يراها، ولكن كلّ النّاس يبحثون عنها.

ـ كيف هي كتب الحبّ؟

ـ هذه الكتب، أخشى أن أكون عاجزاً عن تحديثك عنها. فأنا لم أقرأ منها أكثر من كتابيْن.

ـ لا بأس. وكيف هي؟

ـ حسناً، إنّها تروي حكاية شخصيْن يلتقيان ويتحابّان ويكافحان لتذليل الصعوبات الّتي تَحُول دون أن يكونا سعيديْن.

أعلن نداء «السُّكّر» عن الإقلاع فلم يجرؤ على الطلب من الكاهن أن يترك له الكتاب. بيد أنّ الّذي تركه له هذا كان،

بالمقابل، رغبةً في القراءة أقوى ممّا كانت في السّابق.

وقضى فصل الأمطار برمّته وهو يجترّ وضعه البائس بوصفه قارئاً من غير كتاب، وأحسّ للمرّة الأولى في حياته بأنّه مُحاصَر من الوحش المسمّى عُزلةً. وإنّه لوحش مخاتل. يتربّص بأدنى غفلة للاستحواذ على صوته والحكم عليه بمحاضرات لا نهاية لها، من غير مستمعين.

كان بحاجة إلى القراءة، الأمر الّذي اقتضى أن يخرج من «ألْ إيديليو». وربّما لم يكن من الضروري أن يذهب بعيداً جدّاً، وربّما صادف في «أيلدورادو» شخصاً يملك كتباً، وقد أخذ يحفر دماغه للعثور على وسيلة للحصول عليها.

وعندما خفّت الأمطار وعادت الحيوانات إلى الظّهور في الغابة غادر كوخه مزوّداً ببندقيّته وبعدّة أمتار من الحبال وبساطوره المسنون جيّداً، وانطلق إلى الأدغال.

وبقي هناك حوالَيْ أسبوعين فوق أراضي الحيوانات الّتي يسعى وراءها الرّجل الأبيض.

وفي منطقة القرود الصغيرة الأجسام، أرض النباتات الشاهقة، أفرغ بضع عشرات من جوز الهند لتحضير الفُخوخ. وكان قد تعلّم ذلك من «الشُّواريين» ولم يكن الأمر صعباً. فيكفي إفراغ الجوز بإجراء فتحة قطرها مقدار إبهام على الأكثر، وفي الجانب الآخر ثقباً صغيراً لتمرير حبل فيه وتثبيته بعقدة

مُحْكَمَة جدّاً. وكان يربط الطرف الآخر من الحبل في جذع شجرة ويضع بعض الحصى في القشرة المُفَرَّغة. وما إن يبتعد حتّى تنزل القرود، الّتي كانت قد راقبته من فوق، لترى ماذا في الجوز. وكانت تأخذها وتحرّكها، وتنتهي، لفرط ما هزّتها وسمعت الصوت الّذي يُحدثه الحصى، بإدخال أيديها فيها لإخراجه. وعندما كانت تمسك بواحدة فإنّها لم تكن تريد إفلاتها.

وما إنْ نصب فُخوخه حتّى بحث عن شجرة من الأشجار السّامقة المسمّاة بحقّ أشجار القرود، لأنّ القرود الصّغيرة الأجسام هي القادرة وحدها على بلوغ الثّمار الّتي تُكلّلها[1] وقد أنضجتها الشمس بشكل لذيذ وجعلتها حلوة المذاق جدّاً.

وهزّ جذعها إلى أن سقطت منها ثمرتان عَطِرتا اللّبّ فحملها في جَعْبته.

ثمّ سار في طريقه إلى منطقة الببّغاوات، بمختلف أشكالها، وطيور «الطوقان» مفتّشاً عن المضاءات، محاولاً تجنّب اللّقاءات السيّئة.

وقادته سلسلة من الوديان المأهولة باليعاسيب والنحلات العاملات والمدنّسة السطوح بزَرَق الطيور. وما إن أوغل فيها

(١) هي ثمار تشبه الشّمام شكلاً وطعماً. (المترجم).

حتّى ساد السكون وامتدّ عدّة ساعات إلى أن أَلِفَت الطّيور وجوده.

وصنع قفصينْ بأن ضَفَر بإحكامٍ أغصاناً وسوق بعض النباتات المعترشة وبحث عن جذور «الياهواسكا».

وسحق بعدئذٍ الثمرتينْ لمزج اللّبّ الأصفر العطرِ بعصارة الجذور المُسْتَخْرَجة بضربات من مقبض السّاطور، وانتظر وهو يدخّن أن يختمر المزيج. وتذوّقه فوجده قويّاً وحُلْواً. وإذ غمره الرّضى فقد ذهب يعسكر عند ضفّة ساقية حيث أشبع جوعه بالسّمك.

وفي اليوم التّالي انطلق يرفع فُخوخه.

ووجد في منطقة القرود حوالي اثني عشر حيواناً وقد خارت قواها بفعل جهودها العقيمة لتحرير أيديها الحبيسة في ثمار جوز الهند. واختار منها ثلاثة أزواج فتيّة فحبسها في أحد القفصينْ وحرّر الباقي.

ثمّ عاد إلى منطقة الببّغاوات حيث ترك الثّمار المتخمّرة فوجد فيها عدداً من الببّغاوات والطيور المختلفة الأنواع نائمة في أوضاع لا تخطر على بال. وكان بعضها يحاول الخطو وهو يترنّح، وبعضها الآخر يحاول الطيران محرّكاً جناحيه بشكل أخرق.

ووضع في القفص زوجاً من «الغوياكاموس»، وهي ببغاوات كبيرة زرقاء وذهبيّة، وزوجاً آخر من ببغاوات «الشابول»

الصّغيرة، المطلوبة كثيراً بسبب موهبتها في الكلام، وترك ما تبقّى منها متمنّياً لها استيقاظاً هنيئاً. وكان يعلم أنّ سُكْرها سوف يستمرّ عدّة أيّام.

وما إن وضع غنيمته على ظهره حتّى عاد إلى «ألْ إيديليو» وانتظر أن يُنهي ملّاحو «السُّكّر» حمولتهم فاقترب من صاحب الزّورق.

ـ عليّ أن أذهب إلى «أيلدورادو» ولستُ أملك نقوداً. إنّك تعرفني. خذني معك وسوف أدفع لك فيما بعد عندما أبيع بهائمي.

ألقى صاحب الزّورق نظرة على الأقفاص وخلّل لحيته الّتي عُمرها عدّة أيّام قبل أن يجيب.

ـ أعطني ببّغاء صغيرة وأعتبر أنّك دفعتَ لي. وإنّها لصَفْقةٌ لا أَعِدُ ابني بمثلها.

ـ في مثل هذه الحال أعطيك زوجاً فأكون قد دفعت لك أجرة العودة أيضاً. فهذه الطّيور تموت كمداً إذا فُصِل أحدها عن الآخر.

ثرثر خلال الرّحلة مع الدّكتور «روبنكوندو لواشامين» وأطلعه على دوافع انتقاله. وكان طبيب الأسنان يُصغي إليّه مُنْشَرِحاً.

ـ ولكنّ مادمت تريد الحصول على كتب فلماذا لم تسألني

ذلـك؟ فـأنـا متـأكّـد من أنّي كنت سـأجـد لـك بعضهـا في «غواياكيل».

ـ شكـراً يا دكتـور. المشكلة هي أنّي لا أعرف بعـدُ أي كتب اريد ان اقرأ. بيد أنّي ما إنْ أعرفُ حتّى أستغلّ عَرْضَك.

لم تكن «أيلدورادو» بالطّبع مدينة كبيرة. وكـان يُعثر فيهـا على نحو مئة بيت مرصوص معظمها على طول النّهـر، ولم تكن تَدين بـأهمّيّتها إلاّ إلى مـركز الشّرطـة وبضعـة مكـاتب إداريّـة صغـيرة وكنيسة ومدرسـة عامّـة قلّما يغشاهـا التّلاميـذ. وأمّا بـالنّسبة إلى «أنطونيو خوسيه بوليڤار» الّذي لم يكن قد غادر الغابة منذ أربعين عامّاً فقد كانت تعني الـرّجوع إلى العـالم الرّحب الّـذي كان قـد عرفه في غابر الأزمان.

وقـدّمـه طبيب الأسنـان إلى الشخص الـوحيـد القـادر عـلى مسـاعدتـه، وهو المعلّمـة، وحصل للعجـوز كذلـك عـلى الإذن بالنّوم في حَرَم المدرسة، وهو عبـارة عن مسكن كبير من القصب ملحق به مطبخ، وذلك لقـاء معاونتـه في الأعمال البيتيّـة وصنعه مجموعة من الأعشاب المخصّصة للتعليم.

وعنـدما فـرغ من بيع قـروده الصغيرة وببّغـاواته أرتـه المعلّمة مكتبتها.

وهـزّته رؤيـة هذا القَـدْر من الكتب المجموعـة. فقـد كـانت المعلّمة تملك نحو خمسـين مُجَلّداً مرتّبـة فوق رفـوف، ولقد أحسّ

بمتعة لا توصَف وهو يتصفّحها مستعيناً بالعدسة المكبِّرة الّتي كان قد اشتراها لتوِّه.

وقضى على هذا النّحو خمسة أشهر تمكّن خلالها من تكوين أذواقه قارئاً وصَقْلها وهو يعاقب بين الشّكوك والرّدود.

وكان وهو يتصفّح النّصوص المتعلّقة بالهندسة يتساءل عمّا إذا كان الأمر يستأهل بالفعل أن يكون مُحْسِناً للقراءة، ولم يحتفظ من هذه الكتب بغير جملة واحدة طويلة كان يطلع بها في لحظات مزاجه العَكِر: «إنّ وتر المثلّث القائم الزّاوية هو الضِّلع المقابل للزّاوية القائمة». وهي جملة لم يكن بدّ من أن تُحْدِث فيما بعدُ الانذهال لدى أهالي «ألْ إيديليو» الّذين كانوا يتلقّونها وكأنها أُحجية غير معقولة أو بذاءة صريحة.

وبدت له نصوص التّاريخ سُبْحةً من الأكاذيب. أفَيُعْقَل أن يكون أولئك السّادة القِصار الشّاحبون، بقفّازاتهم البالغةِ مرافِقَهم، وسراويلهم الملتصقة الّتي تشبه سراويل البهلوانات، قادرين على كسب المعارك؟ وكان يكفيه أن يرى خصلات شعرهم المجعّد بعناية وهي تتطاير في الهواء لكي يُدْرِك أنّ هؤلاء النّاس كانوا عاجزين عن قتل ذبابة. وعلى هذا النّحو استُبْعِدت الأحداث التّاريخيّة من دائرة ميوله قارئاً.

وقد شغل «أدموندو دي أميشي» وكتابه «القلب» عملياً نصف إقامته في «أيلدورادو». فمعهما كان منصرفاً حقّاً إلى عمله. فقد

كان ذلك كتاباً يلتصق بيديه وعينيه ويُنسيه التعب فيستمرّ في القراءة، بَعْدُ وعلى الدّوام، إلى أن انتهى به الأمر ذات مساء إلى تحديث نفسه بأنّه من غير الممكن أن يُعانيَ جسد واحد هذا القدر من الآلام ويحتويَ على هذا القدر من سوء الحظّ. ولابدّ أن يكون المرء بالفعل وَغْداً لكي يتلذّذ بشقاء صبيّ بائس مثل «لومبار الصغير»، وعندها، وبعد أن نقّب في المكتبة بأسرها، عثر في نهاية الأمر على ما يناسبه حقّاً.

لقد كان «السُّبْحة» لـ «فلورانس باركلي» يحتوي على الحبّ، وعلى المزيد من الحبّ، وداثماً على الحبّ. وكان الأشخاص فيه يتألّمون ويمزجون الهناء بالشقاء بقدر كبير من الجمال كانت عدسته المكبّرة تندى معه بالدّموع.

وسمحت له المعلّمة الّتي لم تكن تشاطره أذواقه كلّ المشاطرة بأخذ الكتاب معه للعودة إلى «ألْ إيديليو» حيث قرأه وأعاد قراءته مئة مرّة أمام نافذته، مثلما أخذ يفعل الآن بالرّوايات الّتي أحضرها له طبيب الأسنان، والّتي كانت تنتظره متداخلة ومعروضة أُفقيّاً على الطاولة العالية، غريبةً عن الماضي المشوّش الّذي كان «أنطونيو خوسيه بوليڤار» يفضّل عدم التفكير فيه، تاركاً أعماق ذاكرته مفتوحة لمثلها بهناءات الحبّ وأكداره الّتي تفوق الزمن في أبديّتها وخلودها.

- ٥ -

حـدث الطُّوفـان مع ظـلال المساء الأولى، ومـا هي إلاّ دقـائق حتّى استحـال أن يـرى المـرء أبعــد من طـرف ذراعــه الممـدودة. واستلقى العجوز في فـراشـه المعلَّق بـانتـظار النّـوم، يهــدهـده الصخب العنيف والــرتيب الصّـادر عن المــاء الكُـلّي الحضور.

كان «أنطونيو خوسيه بوليڤار» قليل النّـوم. فلم يكن ينام قطّ أكـثر من خمس سـاعـات في اللّيـل وسـاعتـين للقيلولــة. وكـان يخصّص سائر وقته لقراءة الرّوايات والهيام في أسرار الحبّ وتخيُّل الأمكنة الّتي حدثت فيها تلك الحكايات.

وكان عليه وهو يقرأ أسماء «باريس» أو «لندن» أو «جنيڤ» أن يبذل جهداً ضخماً في التركيّز لتصوُّرها. والمدينة الكبرى الـوحيدة الّتي قُدِّر له أن يزورها كـانت «إيبارّا»، وليس يـذكر إلاّ بـذكرى مهـزوزة الشوارع المبلّطة ومجمـوعـات البيـوت الـواطئـة المتـماثلة البيضاء جميعاً، والـ «پلازا دي أرماس» الخـاصّة بـالمتنزّهـين أمام الكاتدرائيّة.

وهنا كانت تتوقّف معرفته بالعالم، وإذ كان يتتبّع المكائد الّتي كانت تُدبَّر في مدنٍ أسـماؤها مُغـرقة في البُعـد والجِدّ مثـلِ «براغ»

«برشلونة» فقد كان يشعر بأن اسم «إيبارّا» لم يكن اسم مدينة خُلقت للغراميّات الكبيرة.

وكان خلال رحلته إلى «أمازونيا» بصحبة «دولوريس أنكرنسيون دلْ سنتيزيمو سكرامنتو استوبينيان أوتاڤالو» قد اجتاز بمدينتين، «لويا وزامورا»، غير أنّه لم يكن منه إلّا أن مرّ بهما مرور الكرام، حتّى إنّه لم يكن مؤهّلاً للقول بما إذا كان من الممكن أن يعثر الحبّ فيهما على أرض مؤاتية.

إلّا أنّ ما كان يحبّ تصوُّره أكثر من أيّ شيء، هو الثّلج.

فإذ كان صبيّاً فقد رأى ما يشبه جلد خروف وُضع ليجفّ على شرفة بُركان «إمبابورا»، وكان أولئك الأشخاص الّذين يسيرون في الرّوايات فوقه من غير خوف من توسيخه يبدون له أحياناً ذوي وقاحة لا تُغْتَفَر.

وفي اللّيالي غير الممطرة كان يغادر فراشه المُعَلَّق وينزل إلى النّهر ليغتسل. ثمّ كان يجهّز لنفسه وجبات من الأرزّ ليومه، ويقلي شرائح من الموز الأخضر، ويضيف إليها بضع قطع كبيرة من لحم القِرْد إذا كان لديه شيء منه.

لم يكن المستوطنون يقدّرون لحم القِرْد. ولم يكونوا يُدركون أنّ ذلك اللّحم القاسي الحافل بالعروق أغنى بكثير بالبروتينات من لحم الخنزير أو البقر المغتذي بالأعشاب الطّافية الّتي ليست سوى ماء، وليس لها أيّ طعم. ثمّ إنّه كان ينبغي مضغ لحم

القِرْد طويلاً، ومدّة أطول ممّن لا يملكون أسنانهم الأصليّة، الأمر الّذي يُشعرهم بأنّهم أكلوا كثيراً من غير أن يُبْهِظوا أجسادهم بلا فائدة.

وكان يروي وجباته بقهوة محمَّصة في محمص من الحديد ومطحونة بالحَجَر، وكان يُحلّيها بالسُّكّر الخام الأصفر ويقويّها بجرعة صغيرة من «الفرونتيرا».

وفي فصل الأمطار كانت اللّيالي أطول، وكان يتلذّذ بالتكاسل في فراشه المُعلَّق إلى أن تُرغمه الحاجة إلى التبوُّل أو يَضطرّه الجوع إلى تركه.

وكان من حسنات فصل الأمطار أنّه يكفي النزول إلى النّهر والخوض في الماء وتقليب بعض الحجارة والتنقيب فى الوحل للحصول على ما يزيد عن عشرة سرطانات للفطور.

وذلك هو ما فعله في هذا الصّباح. فقد تعرّى وربط حبلاً في حزامه وربط طرفه الآخر ربطاً مُحكَماً إلى وتد لحماية نفسه من فيضان مباغت أو من اصطدام بجذع شجرة مجروف، وإذ غمره الماء إلى حَلَمَتَيْه فقد غطس.

كان الماء صفيقاً حتّى القعر، بيد أنّ يديْه الخبيرتيْن زحزحتا حَجَراً وبحثتا في الوحل إلى أن أحسّ بالسرطانات تقرص أصابعه بين كلّاباتها القويّة.

وعام على السطح بقبضة من السرطانات الّتي كانت تتململ

بشكل جنوني، وتهيّأ للخروج من الماء عندما سمع بعض الصّرخات.

ـ فلوكة! فلوكة تقترب!

وحدّد بصره محاولاً اكتشاف المركب، بيد أنّ المطر كان يُشوّش كلّ شيء. وكان وابل المطر الّذي لا ينى يتساقط يحفر صفحة النّهر بملايين وَخزات الدبابيس بحدّة لم تكن هذه تملك معها الوقت لتشكيل الفقاقيع.

من تُراه يكون؟ فالمجنون وحده كان قادراً على المجازفة بالإبحار تحت الطُّوفان.

وأصاخ إلى الصّيحات المتواصلة ولمح أشكالاً تجري نحو الرّصيف.

وارتدى ملابسه وترك السرطانات تحت وعاء مقلوب أمام باب كوخه. وائترز بقطعة من البلاستيك وسلك الاتّجاه نفسه.

اصطفّ النّاس لفسْح المجال لعبور المحافظ. وكان البدين بلا قميص وجميع جسده يقطر ماءً تحت مظلّته الكبيرة السّوداء. وصاح المحافظ وهو يصل إلى الجُرُف:

ـ ما الّذي يجري؟

وكان الجواب الوحيد إشارة إلى الفلوكة المربوطة إلى عمود. وكان بناؤها الرديء يحمل طابع المنقّبين عن الذّهب. وكانت قد

وصلت نصف عائمة، غير طافية بعدُ إلاّ لأنّها مصنوعة من الخشب. وعلى متنها كان يترجّح جسد رجل مفتوح النحر مُمزّق الذراعين. وكانت الأسماك قد عضّت أصابع يديه المتشبّثتين بالحافّة، ولم تكن له عينان. وكانت ديوك الصّخور، هذه الطيور الحمراء الصغيرة القويّة القادرة وحدها على الطيران تحت الطُّوفان، قد تكفّلت بأن تنتزع منه كلّ تعبير.

وأصدر المحافظ أمره برفع الجثمان، وإذ أصبح هذا فوق الألواح فقد تُعُرِّف عليه من فمه.

كان ذلك «نابليون ساليناس» أحد المنقّبين عن الذّهب، وكان قد عالجه طبيب الأسنان البارحة. وقد كان «ساليناس» أحد الأشخاص النادرين الّذين لا يَدَعون الطبيب يقتلع أسنانهم المنخورة مفضّلين تقويتها بالذّهب. وكان فمه حافلاً بالذّهب، إلاّ أنّ أسنانه الّتي كانت تعلن عن ابتسامة أخيرة تحت المطر الّذي ملّس شعره لم تُثر الإعجاب قطّ.

وبحث المحافظ بعينيه عن العجوز.

ـ هه؟ القطّة أيضا؟

قرفص «أنطونيو خوسيه بوليڤار» أمام الميت من غير أن ينقطع عن التفكير بالسرطانات الّتي تركها سجينة. وأزاح جرح العنق وفحص تمزّقات الذراعيْن ووافق بهزّة من رأسه.

وختم المحافظ بالقول:

ـ حسناً، لقد نقصوا واحداً. وكان الشيطان سيحمله عاجلاً أم آجلاً.

لقد كان البدين على حقّ. فالمنقّبون عن الذّهب كانوا يحتبسون خلال فصل الأمطار في بيوتهم السّيئة البناء متربّصين بالانفراجات النادرة الّتي لم تكن قطّ لتدوم طويلاً وسرعان ما تُخلي المكان لشآبيب مضاعفة أضعافاً.

وكانوا يتّبعون حرفيّاً المثل القائل «الوقت من ذهب»، وإذ كان المطر يَدَعُ لهم أن يفرغوا لذلك فإنّهم كانوا يلعبون بالقمار لعبة «التوتي» بأوراق لعب مُدْهِنة كان من المستحيل تقريباً قراءة ما تمثّله. وكان الكُره يتنامى، فجميعهم يريدون الاستحواذ على «المَلِك السباتي»، وكان كلّ منهم يظنّ الظنون بالآخرين ويبادلهم ارتياباً بارتياب، وقبل نهاية الأمطار كان هناك على الدّوام بعض المختفين من غير أنّ يُعلم ما إذا كان النّهر قد ابتلعهم أو الغابة الضّارية.

وفي بعض الأحيان كان يُلْحَظ من رصيف «ألْ إيديليو» عبور جثّة منتفخة بين الأغصان والجذوع الّتي اقتلعها الفيضان، ولم يكن أحد ليهتمّ بأن يرمي إليها بكُلّاب.

كان رأس «نابليون ساليناس» متدلّياً، وكانت ذراعاه المنهوشتان تشيران وحدهما إلى أنّه قد سعى إلى الدّفاع عن نفسه.

وأفرغ المحافظ له جيوبه. ووجد بطاقة هُويّة حائلة اللّون، وبضع قطع نقديّة، وقليلاً من التبغ، وكيساً صغيراً من الجلد. وفتحه وعدّ عشرين فِلذة صغيرة كأنّها حبوب أرزّ.

ـ حسناً أيُّها الخبير، ما الّذي تظنّه من الأمر؟

ـ ما تظنّه أنت. يا صاحب السّعادة. لقد ذهب من هنا متأخّراً وثِملاً بما فيه الكفاية، وقد فاجأه المطر فتوجّه إلى الضفّة لقضاء اللّيل. وهناك بالذّات هاجمته الأنثى. وقد أفلح في ركوب فلوكته على الرّغم من جراحه، غير أنّه كان قد فُصِد فصداً.

قال البدين:

ـ يُسعدني أن نكون متّفقيْن.

وأصدر المحافظ أمره إلى أحد المعاونين بأن يحمل مظلّته لكي تتحرّر يداه ووزّع الفلذات الذّهبيّة على الحاضرين. ثمّ استعاد مظلّته ودفع الميّت بقدمه فأرسله إلى الماء ورأسه يسبق جسمه. وغاصت الجثّة عميقاً وحال المطر دون رؤية المكان الّذي عادت تطفو فيه.

وإذ أحسّ بالرضى فقد هزّ مظلّته علامة على الانطلاق، ولكنّه حين رأى أنّ أحداً لم يكن يتبعه، وأنّ الجميع كانوا ينظرون إلى العجوز، بصق غاضباً.

ـ إيه، ما الأمر؟ لقد انتهت الجلسة. ماذا تنتظرون؟

واصل الرّجال النّظر إلى العجوز الّذي اضطُرّ إلى الكلام.

ـ لنفرض أنّ اللّيل فاجأ أحدهم وهو فوق النّهر، ففي أيّ جانب عليه أن يرسو لانتظار النّهار؟

وأجاب البدين:

ـ في الجانب الآمَن. جانبنا.

ـ لقد قلتَ ذلك، يا صاحب السّعادة. جانبنا. فالمرء يتوقّف على الدّوام في هذا الجانب، لأنّه إذا أضاع فلوكته ظلّ محتفظاً بإمكان الرّجوع إلى القرية شاقّاً طريقه بضربات من ساطوره. وذلك ما دار في خلد «ساليناس» المسكين هذا.

ـ وبعدُ؟ ماذا يفيدنا هذا الآن؟

ـ يُفيدنا كثيراً. إذا فكّرت قليلاً أدركت أنّ الحيوان موجود، هو الآخر، في جهتنا. أم لعلّك تعتقد أنّ القطط البرّيّة تجتاز النّهر في مثل هذا الجوّ؟

أثارت أقوال العجوز مناقشات حادّة. وكان الرّجال ينتظرون جواباً من المحافظ. ولم يكن بدّ، بعد كلّ حساب، من أن تنفع السّلطة في أمر من الأمور.

وكان البدين يشتشعر هذا الانتظار وكأنّه عدوان، فتظاهر بالتفكير ملياً بِلَيِّ رقبته الثخينة تحت مِظلّته. وتضاعف المطر بغتة فالتصقت الأكياس البلاستيكيّة الّتي تغطيّ الرّجال بأجسادهم وكأنّها جلود ثانية فوق جلودهم. وقال المحافظ نافخاً صدره:

ـ الحيوان بعيد. ألم تَرَوا الجثّة؟ بلا عينيْن وقد أكلت البهائم

نصفهـا. إنّ الأمر لم يحـدث في مدى سـاعـة، ولا حتّى في خمس ساعات. ولست أرى سبباً يدعو إلى أن تُحْدِثوا في سراويلكم.

وردّ العجوز:

ـ قد يكون ذلك حقّاً. غير أنّ ما هـو مؤكّد أيضـاً أنّ الميّت لم يكن متيبِّساً، ولم يكن يحسّ شيئاً.

ولم يزد شيئاً على ما قال ولا انتظر التتمّة. واستدار على عَقِبَيْه وذهب وهو يُسائل نفسه عمّا إذا كان سيأكل السرطانات مقليّة أو مسلوقة.

وإذ دخـل بيته فقـد استطاع أن يـرى من خلال شـآبيب الماء طيف المحـافظ المتوحِّـد والبدين تحت مِـظلّته وكـأنّه فُـطْر ضخم وقاتم أمكن أن ينمو بغتة فوق ألواح الرّصيف.

- ٦ -

بعد أن أكل العجوز السرطانات اللّذيذة نظّف وجبة أسنانه بدقّة ولفّها في منديله. ثمّ أخلى الطّاولة ورمى بالفضلات من النّافذة وفتح زجاجة «فرونتيرا» واختار إحدى الرّوايات.

وكان المطر المحيط به من كلّ صوب يوفّر له حميميّة لا مثيل لها.

وكانت بداية الرّواية حسنة.

«قبّلها «بول» قُبْلة محمومة فيما كان صاحب الغندول المتواطئ مع صديقه في مغامراته يتظاهر بالنّظر بعيداً، والغندول المزيّن بالطنافس الوثيرة ينساب بوداعة فوق مياه قنوات البندقيّة».

وقرأ العبارة بصوت عالٍ عدّة مرّات.

- تُرى كيف هي الغندولات؟

إنّها تنساب فوق مياه القنوات. لابدّ أنّها مراكب أو فلوكات. وأما «بول» فقد كان من الواضح أنّه لم يكن شخصاً يُنصح بمخالطته لأنّه قبّل الشابة «قبلة محمومة» بحضور صديق، متواطئ فوق ذلك.

ولقد راقته هذه البداية.

فقد كان مُمتنّاً للمؤلّف أنْ عينّ الخبثاء من البداية. فبهذه

الطريقة يمكن تجنُّب مواقف سوء التفاهم والاستلطافات غير المُسْتَحَقَّة.

وتبقى القُبْلة ـ ماذا قبل كلّ شيء؟ ـ «محمومة». تُرى كيف بالإمكان فعل ذلك؟

وتذكّر المرّات النّادرة الّتي قبّل فيها «دولوريس أنكرنسيون دلْ سكرمنتو أستوبينيان أوتاڤالو». وربّما كانت إحدى تلك القُبُلات، من غير أن يدري، محمومة كقُبْلة «پول» في الرّواية. وعلى كلّ حال فإنّه لم يكن هناك كثير من القُبَل لأنّ امرأته كانت تردّ بالقهقهات أو تقول بأنّ ذلك لابدّ أن يكون خطيئة.

قُبْلة محمومة. قُبْلة. لقد اكتشف حديثاً أنّه لم يكن قد قبّل قط، إلاّ امرأته فقط، لأنّ «الشُّواريين» لا يعرفون القُبْلة.

وعندهم بين الرّجال والنّساء ملاطفات ومداعبات في جميع أنحاء الجسد من غير أن يهتمّوا لوجود شخص ثالث. وحتّى عند الجماع لا يتعاطَوْن القُبل. وتفضّل المرأة أن تقرفص فوق الرّجل لأنّ هذا الوضع يجعلها تتذوّق لذّة الغرام بشكل أفضل، ويجعل النخير الّذي يرافق العمليّة أشدّ فعالية.

لا، إنّه لا وجود للقُبْلة عند «الشّواريين».

وتذكّر كذلك أنّه رأى ذات مرّة منقّباً عن الذّهب يعتلي امرأة من «الجيڤارو»، وهي بائسة كانت تطوف بالمستوطنين والمغامرين مُسْتَجْدِية جرعة من «الأغواردينت». وكان بإمكان جميع الرّجال

الرّاغبين فيها أن يقودوها إلى زاوية ويضاجعوها. وإذ كان الكحول قد أفقد المنكودة كلّ إدراك فإنّها لم تكن تعلم ما يُفعل بها. وفي تلك المرّة أخذها أحد المغامرين إلى الشاطئ وسعى إلى إلصاق فمه بفمها.

لقد كان ردّ فعل المرأة أشبه بردّ فعل حيوان ضارٍ. فقد دحرجت الرّجل المستلقي فوقها ورمت بحفنة من الرّمل في عينيه وذهبت تقيء جِهاراً من فرط التقزُّز.

وإذا كانت هذه هي القُبلة المحمومة فليس «پول» الّذي في الرّواية سوى خنزير.

وعندما أقبلت ساعة القيلولة كان قد قرأ زهاء أربع صفحات وفكّر في ما جاء فيها، وكان مشغولاً بألاّ يتمكّن من تصوُّر «البندقيّة» وهو يُضفي عليها الصفات الّتي سبق أن أضفاها على مدن أخرى مُكْتَشَفة هي أيضاً في الرّوايات.

كانت الشوراع في «البندقيّة» على ما يبدو مُبلّلة، وعلى النّاس فيها أن يتنقّلوا في غوندولات.

الغندولات. وانتهى الأمر بكلمة «غندول» أن فَتَنَتْه، وفكّر في أنّه من الخير أن يسمّي فلوكته كذلك: «غندول نَنْغَرِيتزا».

كان قد وصل إلى هذا الحدّ من أفكاره عندما اجتاحه خَوَر منتصف النّهار فاستلقى على الفراش المعلّق وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رائقة لمجرّد التفكير بأولئك النّاس المعرَّضين

للسقوط رأساً في النّهر ما إنْ يجتازون عتبة بيتهم.

وبعد مأدبة أخرى من السرطانات أقامها متأخّراً بعد الظهيرة، رغب في متابعة قراءته بيد أنّه شُغل بصرخات أرغمته على إخراج رأسه تحت المطر.

كانت بغلة مذعورة ترمح على الدّرب وهي تطلق نهيقاً مهولاً وتوجّه رفسات إلى الّذين كانوا يحاولون وَقْفها. وإذ نهشه الفضول فقد ألقى بالملفعة البلاسيتيكة فوق كتفيه وانطلق يستطلع ما كان يجري.

وكان الرّجال قد تمكّنوا بعد كبير عناء من الإحاطة بالدّابّة وهم يُضيّقون حلقتهم متحاشين ضربات الحوافر. وكان بعضهم ينزلقون وينهضون وقد غطّاهم الوحل، بيد أنّه تمّ في النّهاية تجميد حركة البهيمة بعد الإمساك برسنها.

كانت البغلة تحمل جراحاً بليغة فوق خاصرتيْها وتنزف بغزارة من شقّ امتدّ من الرّأس إلى زَغَب الصدر المُسطّح.

وأصدر المحافظ، وكان هذه المرّة من غير مِظلّة، أمراً بإيقاعها وأرسل إليها رصاصة الرّحمة. وتلقّت الدّابّة العيار وأطلقت بعض الرّفسات في الهواء ثمّ توقّفت عن الحراك. وقال أحدهم:

- إنّها بغلة «ألكاسلتزر ميرندا».

ووافق الحضور. وكان «ميراندا» مستوطناً مُقيماً على بُعْد نحو سبعة كيلومترات من «ألْ إيديليو». ولقد انقطع عن زراعة

أراضيه الّتي تشغلها الأدغال ليُدير محلاً حقيراً لبيع «الأغواردينت» والملح والتبغ. و«الألكاسلتزر» ـ ومن هنا اسمه الأوّل ـ يشتري منه المؤنَ المنقبُون عن الذّهب غيرُ الرّاغبين في الذّهاب حتّى القرية.

وكانت البغلة مُسْرَجة، وهذا أمارة على أنّه لابدّ من وجود فارس في مكانٍ ما.

وأصدر المحافظ أمراً بالتجهُّز لحملة في صباح اليوم التالي باتّجاه محلّ «ميرندا» وكلّف رجلين بجَزْر البهيمة.

وتحرّك الساطوران للعمل تحت المطر. وكانا يقطعان بدقّة في اللّحوم المزيلة ويخرجان دامِيْين، وما هو إلاّ الوقت اللاّزم للإيغال فيها من جديد للتغلّب على مقاومة عظْم من العظام حتّى يكون ماء السماء قد غسلهما.

وحُمل اللّحم الّذي قُطّع على هذا النّحو إلى سقيفة دار البلديّة حيث وزّعه البدين على الأفراد الحاضرين.

ـ وأنت أيُّها العجوز، أيّة قطعة تريد؟

وأجاب «أنطونيو خوسيه بوليڤار» بأنّه يريد فقط قليلاً من الكبد، وقد أدرك تمام الإدراك أنّ اهتمام البدين قد ورّطه في الحملة.

وسلك طريق العودة إلى كوخه وفي يده قطعة الكبد الّتي لاتزال ساخنة، ووراءه الرّجال الّذين كانوا يحملون رأس الدّابّة

وأجزاءها غير الصّالحة للاستعمال لرميها في النّهر. وهبط الظلام وكان يُسمع علاوة على صخب المطر نباح الكلاب وهي تتنازع أحشاء الضحيّة الجديدة الّتي كانت مُبعثرةً في الوحل.

وفيما هو يقلي الكبد ويتبّله ببعض أعواد حصى البان، أخذ يلعن الحادثة الّتي انتزعته من دَعَتِه. فقد أصبح مستحيلاً بعد الآن أن يركّز ذهنه على قراءته إذ كان مضطرّاً إلى التفكير في حملة غدٍ وعلى رأسها المحافظ.

لقد كان جميع النّاس يعرفون أنّ المحافظ يتربّص به، وقد ازداد عِداؤه ولاريب بعد قضيّة «الشُّواريْين» والرّجل الأبيض الميت.

وكان في مقدور البدين أن يسبّب له المشكلات، وقد سبق أن مرّ بمثل هذه التّجربة.

وضع وجبة أسنانه وهو غاضب ومضغ قطع الكبد. وكان كثيراً ما سمع أنّ الشيخوخة تجلب الحكمة، وقد انتظر طويلاً بثقة هذه الفضيلة الّتي ينبغي أن تمنحه ما كان يتمنّاه أكثر ما يتمنّى: القدرة على الحكم بخيط ذكرياته وعدم الوقوع في الفُخوخ الّتي كانت ذاكرته تنصبها له أحياناً.

غير أنّه لم يستطع أن يصمد هذه المرّة أيضاً فيما كان يخفّ صخب المطر الرتيب.

كانت عدّة سنوات تفصله عن تلك الصبيحة الّتي قدم فيها مركب لم يسبق أن شوهد مثله للالتصاق برصيف «ألْ إيديليو». مركب مسطّح بمحرّك كان يتّسع لسفر ثمانية أشخاص سفراً مريحاً وهم جالسون ثُناءَ ثُناءَ لا مُصطفّون الواحد وراء الآخر وقد يبست أطرافهم كما في الفلوكات.

وكان ذلك المركب الحديث الطّراز يُقِلّ أربعة أميركيين مزوّدين بآلات تصوير ومؤن ومُعَدّات مجهولة الاستعمال. وقد قَضَوْا بضعة أيّام يخطبون ودّ المحافظ بتجريعه الويسكي إلى أن سمّى لهم البدينُ، والغرورُ يعمر نفسه، العجوزَ بوصفه أفضل عارف بـ «أمازونيا» وقادهم إلى باب كوخه.

ودخلوا الكوخ من غير استئذان وأصرّ أحدهم بعد أن قهقه مِلْء شدقيه على شراء اللّوحة الّتي تمثّله مع «دولوريس أنكرنسيون دلْ سنتيزيمو سكرامنتو ايستوبنيان أوتاڤالو». بل لقد بلغت الوقاحة بالأبيض أن نزعها ووضعها في كيسه وهو يُلقي بحفنه من الأوراق النقديّة على الطّاولة.

ووجد العجوز صعوبة في تمالُك نفسه والعثور على كلماته.

- قلْ لهذا الوغد إنّه إنْ لم يُرْجِع الصّورة إلى المكان الّذي أخذها منه فسوف أُفرغ فيه رصاصتيْن ويستطيع وداع خُصيتيْه. وقلْ له أيضاً إنّ بندقيّتي محشوّة بالرّصاص على الدّوام.

كان الدُّخلاء يفهمون الإسبانيّة فلم يحتاجوا إلى أن يفصّل

لهم المحافظ نيّات العجوز. وأكّد البدين لهم صداقته، وسألهم أن يتفهّموا، وشرح لهم أنَّ التذكارات العائليّة مقدّسة في هذه المناطق، ورجاهم ألاّ يحملوا الأمر على محمل السّوء، وطمأنهم إلى أنّ «الأكوادوريين» بعامّة، وهو شخصيّاً بخاصّة، يحبّون «الأميركيّين الشماليّين» كثيراً، وأنّهم إذا كانوا راغبين في الحصول على تذكارات جيّدة فإنّه سوف يتكفّل بنفسه بأن يجد لهم بعضاً منها.

وعندما استعادت الصّورة المكان الّذي طالما كانت فيه أعمل العجوز زناد بندقيّته وأصدر إليهم أمراً بتَوْلية الأدبار.

ـ يا لك من غبيّ. لقد أفسدت عليّ قضيّة مهمّة. وها أنت ذا أفسدت على نفسك قضيّة مهمّة. إنّ صورتك أُعيدت إليك. فما الّذي تريده فوق ذلك؟

ـ أن يذهبوا. فأنا لا أتعامل مع أناس لا يعرفون احترام منزلِ سواهم.

وأراد المحافظ أن يُضيف شيئاً، بيد أنّه رأى تكشيرة الازدراء الّتي ارتسمت على وجوه الزائرين قبل أن يستديروا على أعقابهم، واستشاط غضباً.

ـ الّذي سيذهب هو أنت أيّها الخراء العجوز.

ـ أنا في بيتي.

ـ هكذا إذن؟ ألم تتساءل قطّ عمّن يملك الأرض الّتي بنيتَ عليها جُحْر الفأر القذر هذا؟

وفاجأه السّؤال. فقد كان في حوزته قبلاً ورقة رسميّة تُعلنه مالكاً لهكتارين من الأرض، ولكنّ هذين الهكتارين يقعان على بُعد بضعة فراسخ صُعُداً.

ـ ليستْ ملكَ أحد. ليس هناك ملاّك.

وضحك المحافظ ضحكة تنمّ عن الفوز.

ـ الحقّ أنّك مخطئ. إنّ جميع الأراضي الواقعة على شريط عرضه مئة متر على طول النّهر هي ملك «الدّولة». وإذا لم تكن على علم فإنّ «الدّولة» هنا هي أنا. وسوف نعود إلى الحديث في هذا. ولست على وشك نسيان ما فعلت بي، وأنا والصَّفْحُ شيئان اثنان.

قمع العجوز رغبته في الضّغط على الزّناد. وتخيّل العيار المزدوج ثاقباً الكَرِش الضخمة ونازعاً قسماً من الظهر ودالقاً الأحشاء.

ورأى البدين عينيْه المُلْتَمِعَتيْن ووجد من الأفضل إخلاء المكان على عَجَل واللّحاق ركضاً بزمرة «الأميركيين».

وعندما ابتعد الزّورق في اليوم التّالي عن الرّصيف كان فيه مسافران إضافيّان، مستوطن وشخص من «الجيڤارو»، أوصى بهما المحافظ لمعرفتهما الجيّدة بالغابة.

انتظر «أنطونيو خوسيه بوليڤار پروانيو» زيارة البدين وبندقيّته جاهزة.

غير أنَّ البدين ظلّ على مَبْعَدة من الكوخ. وبالمقابل فقد تلقّى زيارة «أونسيان سلموندیو» وهو ثمانينيٌ من مواليد «ڤيلكبمبا» يُبدي له الودَّ بسبب أصولهما الجبليّة المشتركة. وسأله «أونسيان» وهو يحيّيه:

ـ ما الّذي يجري يا ابن بلدي؟

ـ لا شيء يا ابن بلدي. وأنت، ما الّذي أتى بك؟

ـ علمتُ بعض الأمور يا ابن بلدي. لقد جاء «الحلزون» يطلب منّي مرافقة البِيض في الأدغال. وقد وجدت مشقّة في إقناعه بأنّه في مثل سنّي لن أقودهم بعيداً. وكان ينبغي أن تسمع المدائح الّتي كالها لي، «الحلزون». وكان لا يفتأ يكرّر لي إلى أيّ مدى سيكون البِيض سعداء بالحصول عليّ، نظراً لأني أحمل أنا نفسي اسماً من أسماء البِيض.

ـ وكيف ذلك يا ابن بلدي؟

ـ أجل يا صاح. إنّ «أونْسِنْ»[1] هو اسم أحد قدّيسي البِيض. إنّه موجود على قِطع عُمْلَتِهم. ويُكتب بكلمتين في آخر الثانية حرف «ت»: «وانْ سَنْتْ»[2].

(١) رُسم الاسم بالحرف اللاّتيني في أصل الكتاب الفرنسي هكذا: Onecén.(المترجم).

(٢) إذا قُرئ اسم الرّجل بالهجاء الإنكليزي لُفِظ: «وانْ سَنْ»، وبإضافة حرف(t) في آخر الكلمة الثانية يُقرأ الاسم: «One 'cent»، أي «سَنْت واحد»، وهو اسم وحدة النقد الّتي تمثّل جزءاً من مئة من الدولار. (المترجم).

ـ شيءٌ ما يقول لي إنّك لم تأتِ لرؤيتي لتحدّثني عن اسمك يا ابن بلدي.

ـ صحيح. جئت أقول لك أن تأخذ حِذْرك. «الحلزون» يُضمِر لك البغضاء. ولقد طلب أمامي من البِيض أن يذهبوا لدى عودتهم لرؤية مُفوَّض «أيلدورادو» لإرسال حارسيْن من حرّاس الرّيف. يريد أن يطردك من بيتك يا ابن بلدي.

وأكّد من غير اقتناع.

ـ عندي ما يكفي من الذّخيرة لاستقبالهم جميعاً.

ولم يتمكّن، في اللّيالي التالية، من النّوم.

ووصل العلاج الشافي من الأرق بعد أسبوع مع عودة المركب المسطّح القعر. وأعوزت الأناقة عمليّة رُسُوّه. فقد اصطدم بأوتاد الرّصيف ولم يحفل أحد بإفراغ الحمولة. فلم يكن يُقِلّ غير ثلاثة «أميركيين» ما إنْ لامست أقدامهم الأرض حتّى ركضوا يبحثون عن المحافظ.

وبعد زمن قصير تلقّى زيارة البدين الّذي جاء لإقامة السّلام.

ـ اسمع، إنّه يجري الحديث بين المسيحيين وينتهي دائماً بالتفاهم. إنّ ما قلتُه لك صحيح. بيتك مبنيّ على أرض تخصّ «الدولة» وليس من حقّك البقاء هنا. بل عليّ أن أقبض عليك بتهمة الاحتلال غير المشروع، ولكنّنا صديقان. وبقدر ما هو

صحيح القول بأنّ يداً تغسل الأخرى والاثنتين تغسلان العجيزة فإنّ علينا أن نتعاون.

ـ وما الّذي تريده الآن؟

ـ أن تصغي قبل كلّ شيء إليّ. سوف أقصّ عليك ما حدث. لقد هرب «الجيڤارو» عند المعسكر الثّاني حاملاً بعض زجاجات الويسكي. أنت تعرف المتوحّشين. لا يفكّرون إلاّ في السّرقة. وقال لهم المستوطن إنّ الأمر غير مهمّ. وأراد البِيض الإيغال بعيداً لتصوير «الشُّواريين». ولست أدري ما يعجبهم إلى هذا الحدّ في أولئك «الهنود» العُراة تماماً. وعلى كلّ حال فقد قادهم المستوطن من غير ما مشكلة حتّى وصلوا إلى سلسلة جبال «ياكومبي»، ويقولون إنّه المكان الّذي هاجمتهم فيه القِرَدة. ولم أفهم كلّ شيء لأنّهم في حالة هستيريّة كاملة ويتكلّمون ثلاثتهم دفعة واحدة. ويقولون إنّ القِردة قتلت المستوطن وواحداً منهم. وليس في وسعي تصديق ذلك. فمنذ متى تقتل القِردةُ الصغيرة الأحجام النّاسَ؟ إنّ في وسع المرء أن يُرنِّح دزّينة منها بصفعة واحدة. إنّ الفاعلين في رأيي هم «الجيڤارو». ما رأيك؟

ـ تَعلم جيداً أنّ «الشُّواريين» يتحاشَوْن المشكلات. ولم يرَ البيض بالتّأكيد شخصاً واحداً منهم. وإذا كان المستوطن قد قادهم كما يقولون إلى سفح سلسلة «ياكومبي» فعليك أن تعلم كذلك أنّ «الشُّواريين» لم يعودوا يعيشون فيها منذ أمد طويل. واعلم أيضاً أنّ القِردة تهاجم. وإذا كان صحيحاً أنّها صغيرة

الأجسام فإنّها قادرة، بألفٍ منها، على تمزيق أوصال حصان.

ـ لست أفهم شيئاً. لم يكن البِيض يصطادون. بل لم يكن معهم أسلحة.

ـ هناك أمور كثيرة لا تَفْهُمها. ووراثي أنا أعوام كثيرة في الأدغال. اسمع. هل تعرف كيف يفعل «الشُواريون» عندما يدخلون مملكة القِردة؟ ينزعون عنهم أوّلاً كلّ زينتهم، ولا يحملون شيئاً قد يجتذب فضولها ويُسوِّدون سواطيرهم بُسخام البلح المحروق. لعلّك أدركت: إنّ البيض بآلات التصوير الّتي يحملونها، وبساعاتهم والسلاسل الفضيّة الّتي يتحلّون بها، وبأبازيم أحزمتهم وسكاكينهم، قد أَتَوْا بكلّ ما من شأنه أن يُثير فضول القِردة. إنّي أعرف المنطقة وأعرف سلوك تلك المخلوقات. وفي وسعي أن أقول لك إنّك إذا نسيت واحداً من التفاصيل، وإذا كان معك أدنى شيء يجتذب فضول قرد من هذه القِردة الصغيرة الأحجام ونزل من فوق شجرته لأخذه منك فإنّه من مصلحتك أن تدعه يفعل. وإذا قاومت أخذ القرد بالصّياح وما هي إلاّ بضع ثوانٍ حتّى يهبط عليك من السّماء مئاتٌ، بل آلافٌ من الشياطين الصّغيرة المَكْسُوَّة شعراً، والحانِقة.

كان البدين يُصغي وهو يجفّف عرقه.

ـ أُصدِّقك. غير أنّ هذا كلّه بسبب غلطتك، لأنّك رفضتَ مرافقتهم وأن تكون دليلهم. فمعك ما كان شيء ليُحدث. ثمّ

إنّهم كانوا يحملون كتاب توصية من الحاكم. إنّي غائص في الغائط حتّى الرّقبة وعليك أن تساعدني للخروج منه.

ـ ما كانوا ليُصغوا إلى ما أقول. فالبِيض يعرفون على الدّوام كلّ شيء. ولكنّك لم تقل لي بعدُ ما الّذي تريده منّي.

أخرج المحافظ من جيبه الدّاخليّ زجاجة ويسكي وقدَّم إليّه جرعة. وقَبِل العجوز، لا لشيء غير التّعرُّف إلى طعمه، وما لبث أن شعر على الفور بالخزي من جرّاء فضوله المعادل لفضول قرد من القِردة الصّغيرة الأحجام.

ـ يطلبون شخصاً يُلمْلِم رفات رفيقهم. أُقسم لك أنّهم مستعدّون لدفع أَجرٍ مُجْزٍ عن هذا، وأنت الوحيد القادر على القيام به.

ـ موافق. غير أنّي لا أريد أن أتدخّل في قضاياكم. سوف أجلب لكم ما بقي من الأبيض، وأنتم تَدَعُونني وشأني.

ـ بالطّبع، أيّها العجوز. قلت إنّه بين المسيحيّين يتحدّث المرء وينتهي على الدّوام إلى التفاهم.

لم يكن عليه أن يبذل كبير جهد للعثور على المكان الّذي قضى فيه البِيض ليلتهم الأولى، ثمَّ افتتح لنفسه بضرباتٍ من ساطوره درباً إلى «ياكومبي» في الغابة العليا الغنيّة بالثّمار الحرجيّة، وهي أرض لعدّة مجموعات من القرود. ولم يكن بحاجة هناك حتّى إلى البحث عن آثار. فقد ترك الأميركيُّون في أثناء هربهم كميّة من

الأشياء كان تتبُّعها كافياً لكي يعثر على ما بقي من المنكودين.

وفصّ أوّلاً أثر المستوطِن. وتعرّف عليه من جمجمته الخالية من الأسنان. وكان الأميركيّ مسجّىً على بُعْد بضعة أمتار منه. وكان النّمل قد قام بعمل لا مزيد عليه فلم يترك سوى العِظام مجرّدةً واضحة شبيهة بالطباشير. وكان مُنْهَمِكاً في الانتهاء من الهيكل. وكانت النِعال الشبيهة بحطّابات مُنَمْنَمة ونحاسيّة تنقل الشُعر الأصفر بلون القشّ شعرةً شعرةً لتدعيم مدخل وكرها المخروطيّ الشّكل.

واشعل سيكاراً بحركات بطيئة وأخذ يدخّن وهو يتأمّل عمل الحشرات غير المبالية بوجوده. وسمع ضجّة قادمة من أعلى فلم يستطع كبح جماح قهقهة. فقد كان قرد صغير الحجم جدّاً يتدحرج من فوق شجرة مدفوعاً بثقل آلة تصوير لم يكن يريد إفلاتها.

وأنهى سيكاره. وعاون النّمل في تنظيف الجمجمة بساطوره ووضع كومة العِظام في كيس.

لم يكن الأميركيّ المنكود قد أفلح في الاحتفاظ إلاّ بشيء واحد: حزامه الّذي لم يتمكّن القِردة من فكّ إبزيمه المفضّض الّذي على شكل حدوة حصان.

وعاد إلى «ألْ إيديليو» لتسليم الرّفات، وتركه المحافظ وشأنه وعَمِلَ هو كلّ ما في وسعه للحفاظ على هذا الصُلح، إذ إليه

تعود لحظات الهناء المنقضية في مواجهة النّهر واقفاً أمام الطاولة العالية لقراءة الرّوايات الغراميّة على مهل.

وها هو ذا الصّلح يهدِّده مُجدّداً المحافظ الّذي كان يُرغمه على الاشتراك في حملته، وتُهدِّده مخالب مشحوذة تختبئ في مكانٍ ما في أعماق الغابة.

- ٧ -

تجمّع الرّجال عند الفجر الّذي كانت تلوح أنواره الأولى فوق السّحب الملبّدة. وكانوا يَصِلون واحداً بعد واحد حُفاةً وقد شمّروا سراويلهم إلى الرُّكَب وهم يقفزون مُتحاشين وحل الدّرب.

وأمر المحافظ زوجته بتقديم القهوة والموز الأخضر فيما كان هو يوزّع الذخائر. ثلاث عيارات مزدوجة لكلّ رجل وفوقها حفنة من السيكار مربوطة في حزمة وأعواد ثقاب مُكَبْرتة وزجاجة «فرونتيرا».

- «الدّولة» هي الّتي تدفع. وسوف تُوقّعون لي إيصالاً لدى العودة.

كان الرّجال يأكلون ويتبادلون جرعات اليوم الأولى. وكان «أنطونيو خوسيه بوليڤار پرووانيو» واقفاً بعيداً قليلاً عن الزّمرة من غير أن يلمس الطّبق المصنوع من الصّفيح.

لقد أفطر باكراً جدّاً، وكان يعلم أنّه ليس مُستحبّاً الصيّد ببطن مُكْتَظّ. فعلى الصيّاد أن يشعر دائماً بقليل من الجوع، لأنّ الجوع ينشّط الحواسّ. وأخذ يشحذ ساطوره وهو يتفل بانتظام

على النّصل، ثمّ يُغمض إحدى عينيه للتـأكُّد من استـواء الشّفرة الفولاذيّة.

وسأل أحدهم:

ـ هل لديك خُطّة؟

ـ سوف نذهب أوّل الأمر إلى «ميراندا». وبعدها نرى.

لم يكن البدين بالطبع مُخطِّطاً عظيـماً. فبعد أن تحقّقَ علناً من أنّ مسدّسه من طراز «سميث ووسون» كـان محشوّاً حشر جسده في مُشمَّع أزرق لم يزد على أن أبرز حَدَباته وانتفاخاته.

ولم يجازف الرّجال الأربعة بأيّ تعليق. واكتَفَوْا بالتلذّذ برؤيته يتعرَّق مثل صنبور صدِئ محكوم عليه بالمسيل إلى الأبد.

«لسوف ترى أيّها «الحلزون». سوف ترى كيف ستكون دافئاً جدّاً في مُشمَّعك. لسوف تغلي خُصيتاك داخله».

كـانوا جميعـاً، باستثنـاء المحافظ، حُفـاة. ولقد غلّفـوا قبّعاتهم المصنوعة من القشّ بأكياس بلاستيكيّة، في حـين كانت مؤونتهم من السيكـار والذخـائر وأعـواد الثقـاب بمـأمن داخـل جَعباتهم المتّخَـذة من القماش المـطليّ بالمـطّاط. وكـانـوا يعلّقـون بنـادقهم الفارغة من حمائلها في أكتافهم.

ـ إذا كـان في وسعي أن أسمـح لنفسي: لسـوف يزعجـك

حذاءاك المطّاطيّان الطويلا السّاق في المشي.

وتظاهر البدين بأنّه لم يسمع وأعطى إشارة الانطلاق.

وسرعان ما خلّفوا وراءهم آخر مسكن من مساكن «ألْ إيديليو» وتوغّلوا في الغابة. وكان المطر فيها أخفّ، بيد أنّ الماء كان يهطل بزخّات ثقيلة. ولقد احتجز السّقف النباتيّ الغَيْثَ فكان يتراكم على الأوراق، وعندما كان الأمر ينتهي بالأغصان إلى أن ترزح تحت ثقله، كان الماء يندفع مُحمَّلاً بجميع أنواع الرّوائح.

كانوا يسيرون على مهل بسبب الوحل والأغصان والنباتات الّتي اجتاحت الدّرب الضيّق بقوّة جديدة.

ولقد انقسموا لكي يتقدّموا بمزيد من اليُسر، وكان رجلان يشقّان الطريق بضربات من ساطوريهما يتبعهما المحافظ اللاّهث مبلّلاً من الدّاخل بقدر ما هو من الخارج، ويُنهي اللّذان في الخلف المسيرة بقطع ما فات الأوّلان قطعه.

وكان «أنطونيو خوسيه بوليڤار» واحداً من هذه السّاقة. وأمَرَ البدين:

- ذخّروا البنادق. من الخير أن نكون مستعدّين.

- ولماذا نفعل؟ إنّ العيارات ترفل جيّداً في الجفاف داخل الحقائب.

- أنا مَنْ يأمر هنا.

ـ أوامرك مطاعة يا صاحب السّعادة. الحقّ أنّ العيارات ملك «الدّولة».

وتظاهر الرّجال بتذخير بنادقهم.

وكانوا قد قطعوا، بَعْدَ خمس ساعات من السّير، أكثرَ من كيلومتر واحد بقليل. ولقد أضطُرّوا إلى التوقّف عدّة مرّات بسبب حذاءيِ البدين. فقد كانت رجلاه تغوصان بانتظام في الطّين مُصدِرتيْن أصوات امتصَاص وكأنّ الطين سيبتلع الجسد السمين برمّته. وكان هو يتخبّط بشكل أخرق لم يكن يتوصّل معه إلاّ إلى مزيد من الغَوْص. وكان الرّجال يخرجونه بالإمساك به من تحت إبطيْه، وما هي إلاّ بضع خطوات أخرى حتّى كان يجد نفسه في الوحل إلى ركبتيْه.

وفجأة فقد أحد حذاءيْه. وظهرت الرِّجْل المحرَّرة بيضاءَ بذيئةً، غير أنّه ما لبث، لكي يحافظ على توازنه، أن غَمَسَها في الثّقب الّذي اختفى الحذاء فيه.

وعاونه العجوز ورفيقه على الخروج من هناك. وأمر البدين قائلاً:

ـ حذائي. جِدا لي حذائي.

ـ لقد أكّدنا لك أنّ حذاءيك سيضايقانك. لقد ضاع أحدهما. افعل مثلنا. امشِ فوق الأغصان الميّتة. الأمرُ أسهلُ بقدمين حافيتيْن والمشيُ أسرعُ.

انحنى المحافظ مَغيظاً وحاول حفر الوحل بيديه. مهمّة مستحيلة. فلم يكن يفعل غير جلب حفنات من مادّة سوداء لزِجة من غير أن يتمكّن من فتح ثقب في السّطح الأملس.

قال أحد الرّجال:

ـ لو كنت مكانك ما فعلت هذا. فلا يعرف المرء أيّة حشرات تنام مطمئنّةً تحت.

وأمّن العجوز بقوله:

ـ هذا صحيح. عقارب مثلاً. إنّها تدفن نفسها حتّى انتهاء الأمطار وتكره أن يُزعجها أحد. إنّ هذه الحيوانات العاهرة رديئة الطّباع.

ورمقه المحافظ، وهو لايزال مُنحنياً، بنظرة حاقدة.

ـ أتظنّ أني سأبتلع سخافاتكم؟ تريدون إخافتي بقصص العجائز هذه الّتي تَرْوُونها؟

ـ لا يا صاحب السّعادة. انتظر قليلاً.

وقطع العجوز غصناً وشقّ طرفه ليجعل منه مِذْراة وَعَمَسَه عدّة مرّات في الماء المُقَرْقِر. ثمّ سحبه ونظّفه بحيطة بساطوره وأسقط منه عقرباً بالغاً. وكانت الحشرة مغطّاة بالطين، غير أنّه كان في وسع المرء أن يرى جداً حُمَتَها السّامّة الشائلة.

ـ أرأيت؟ إنّك، مُتصبّباً عرقاً ومملّحاً كما أنت، تُشكّل دعوة حقيقية للعَشاء بالنّسبة إلى هذه الحشرات.

ولم يردّ المحافظ. وحَدَج العقرب الّتي كانت تحاول الغطس من جديد في حِمى الطين. وأخرج مسدّسه من قِرابه وأفرغ الرّصاصات السّت في الحَشَرة. ثمّ خلع الحذاء الثاني ورمى به بين أوراق النّبات الملتفّة.

وإذ غدا البدين في النّهاية حافيّاً فقد أصبح المسير أسرع، ولكنّه استمرّ في إضاعة الوقت عند الحاجة إلى التسلُّق. فبعد أن يكونوا قد تسلّقوا دون عناء، كان عليهم أن يتوقّفوا لينظروا إلى المحافظ زاحفاً على أربع، مُتقدِّماً خطوتيْن ومنزلِقاً أربعاً. وصاحوا قائلين:

ـ اصعد القهقرى يا صاحب السّعادة. انظر إلينا. باعِدْ جيّداً بين ساقيك قبل أن تضع رجلك. ولا تفتحهما أعلى من ركبتيْك. سِرْ مثل راهبة محتشمة حين تمرّ أمام ثُكَنْة. افتحهما جيّداً وامشِ القهقرى.

كان البدين يحاول، وقد احمرّت عيناه حنقاً، أن يصعد على طريقته، بيد أنَّ جسمه غير المتناسق كان يخونه على الدّوام، وكان على الرّجال أن يشكّلوا سلسلة لرفعه بالأذْرُع.

كانت النّزَلات أسرع. وكان المحافظ يُتمّها جالساً أو مستلقياً على ظهره أو بطنه. وكان يصل أوّلَ على الدّوام وقد غطّاه الوحل وبقايا النباتات.

وفي العصر تجمّعت في السّماء من جديد سُحُب ضخمة. ولم

يكن بإمكانهم رؤيتها غير أنّهم كانوا يقدّرون وجودها من العتمة الّتي جعلت الغابة أعصى على الإيغال.

قال المحافظ:

- مستحيل أن نواصل. إنّنا لا نرى شيئاً على الإطلاق.

وأجاب العجوز:

- ها هو ذا قول معقول.

أمَر المحافظ:

- لنتوقّف إذن هنا.

- انتظروني. سوف أبحث عن مكان آمن. لن أتأخّر كثيراً. دخّنوا، وهكذا أستطيع تحديد وجهتي وأنا عائد.

أعطى العجوز بندقيّته إلى أحد الرّجال. واختفى غائصاً في الظُّلمة وظلّ الآخرون لتدخين سيكاراتهم وهم يَحْمُونها بأيديهم.

سرعان ما وجد هضبة وتقدّم بضع خطوات لقياسها وسبر نباتاتها بساطوره. ورجّع الساطور بغتة صوتاً معدنيّاً فزفر العجوز زفرة ارتياح ورضى. وانضمّ إلى الزُّمْرة مُهتدياً برائحة التبغ وأعلن أنّه وجد مكاناً لقضاء اللّيل.

وصلت الزُّمْرة إلى المصطبة وقطع اثنان من الرّجال أوراق شجر موز برّيّ. وفرشا بها الأرض وجلسوا جميعاً مسرورين لشرب جرعة مُسْتَحَقَّة تماماً من «الفرونتيرا».

وقال المحافظ شاكياً:

ـ أسفي ألّا يكـون باستـطاعتنا أن نشعـل ناراً. وإلّا لشعـرنا بمزيد من الأمان.

قال أحد الرّجال:

ـ هكذا أفضل.

ودافع المحافظ قائلاً:

ـ لا أحبّ هذا. لا أحبّ الظُّلمة. فحتّى المتوحّشون يوقـدون النّار لحماية أنفسهم.

ـ اسمع يا صاحب السّعادة. إنّا في مكان آمن. ولنفـرض أنّ البهيمـة موجـودة عند الـرّكن: لا نستطيـع رؤيتهـا، بيـد أنّها لا تستـطيع هي أيضـاً رؤيتنا. فـإذا أشعلنا نـاراً أتاح لهـا ذلـك أن تـرانـا، وأمّـا نحن فسنـظلّ لا نـراهـا لأنّ اللّهب سـوف يُعْشي أبصارنا. ابقَ هادِئاً وجرّب أن تنام. إنّنا جميعاً بحـاجة إلى قسط جيّد من النّوم. وينبغي على الأخصّ تحاشي الكلام.

أمّن الرّجال على أقواله، وبعد أن تـداولوا بـاقتضاب تـوزّعوا نوبات الحراسة. وتولّى العجوز النّوبة الأولى.

سرعان ما استولى تعب المسير على الرّجال. وناموا على شاكلة زناد البندقيّـة وقد لفّـوا أذْرُعهم حول سيقـانهم وأسدلـوا قبّعاتهم على وجوههم.

وطغى صوت المطر على صوت تنفُّسهم الهادئ.

كـان «أنطونيـو خوسيـه بوليڤـار» جالسـاً مستنداً بـظهره إلى

شجرة وشابكاً ساقيه. وأخذ يداعب بين الفينة والفينة نصْل ساطوره ويتابع بانتباه أصوات الغابة. وأشارت إليه صدمات متكرِّره وصوت كتلة ضخمة تضرب الماء بأنّهم كانوا بقرب فرع من فروع النّهر أو قناة جامعة بين مجريْين في حالة فيضان. وكان الطُّوفان في فصل الأمطار يُسْقِط الحشرات بالآلاف من فوق الأغصان فتغدو ولائم للأسماك. وكانت هذه تتقافز فرحاً وقد امتلأت بطونها وشبعت.

وتذكّر المرّة الأولى الّتي رأى فيها سمكة نهريّة حقيقيّة. وقد مضى زمن طويل على ذلك. وكان لايزال مبتدئاً داخل الغابة.

فعشيّة يوم حافل بالصيّد شعر بأنّ جسمه حامض ونتن من فرط التعرّق بحيث رغب عند وصوله إلى ضفّة ترعة أن يغطس فيها غطسة. ولحسن حظّه أنّ أحد «الشُّواريين» رآه في الوقت المناسب وأطلق له صيحة تحذير.

- لا تفعل ذلك. إنّه خطِر.

- أسماك البيرايا؟(*)

لا. هذا ما شرحه له «الشُّواريّ»: أسماك البيرايا تعيش في مياه هادئة وعميقة، ولا تكون قطّ في المجاري السّريعة. إنّها أسماك بطيئة ولا تصبح نشِطة إلّا بتأثير الجوع أو رائحة الدّم. والحقّ أنّه لم تحدث له قطّ مشكلة مع أسماك البيرايا. وقد علّمه

(*) أسماك نهريّة صغيرة مشهورة بشدّة ضراوتها وفتكها. (المترجم).

كان ذلك هو المحافظ مقترباً، وقد أيقظته الضجّة، وفانوسه مُضاء.

وأمر العجوز بحدّة ومن غير أن يرفع صوته:

ـ أطفئْ هذا.

وأجاب البدين وهو يرسل حزمة الضوء في جميع الاتّجاهات ويجهّز مسدّسه:

ـ لماذا؟ هناك شيء وأريد أن أرى ما هو.

ـ قلت لك أن تطفئْ هذه القذارة.

وبضربة من جُمْع يده أرسل العجوز الفانوس يتدحرج.

ـ بأيّ حق...

وضاعت أقوال البدين في اصطفاق أجنحة صاخب، وانقضّ شلاّل نتِن على الزُّمرة.

ـ تهانينا. ليس علينا إلاّ أن نرفع المعسكر بسرعة إذا لم نكن نريد أن تأتي النِّمال لمنازعتنا الغائط الطازج.

لم ينبس المحافظ بكلمة. وتلمّس طريقة للعثور على الفانوس وتبع كيفما اتّفق له الزُّمرةَ الّتي كانت تغادر المكان.

ومَشَوْا حتّى وصلوا إلى مضاءة ساطهم فيها المطر سَوْطاً.

وإذ توقّفوا فقد سأل البدين:

ـ ما الّذي جرى؟ ماذا كان ذاك؟

ـ غائط. ألا تشمّ رائحته؟

ـ أعرف جيّداً أنّه غائط. أكنّا تحت قطيع من القِردة؟

كان ضوء هزيل قد بدأ يُري أطياف الرّجال وأشكال الغابة.

ـ إذا كان ذلك مُفيداً لك يا صاحب السّعادة فإنّه عندما يخيّم المرء في الغابة عليه أن يستقرّ قرب جذع محروق أو مُتحجِّر. فالخفافيش الّتي تعشّش فيه هي خير نذير بالخطر. فبطيران هذه الحيوانات الصّغيرة بالاتّجاه المعاكس لمصدر الصّوت تُطلعنا على المكان الّذي صدر منه. غير أنّك أخفتها بمصباحك وصراخك فطارت وهي تتغوّط فوقنا، إنّها حسّاسة جدّاً مثل جميع القوارض، وعند أدنى نذير بالخطر تقذف بكلّ ما في بطونها لتتخفّف. هيّا، افرك جمجمتك جيّداً إن لم تُرِدْ أن يلتهمك البعوض.

وحاكى المحافظ الآخرين وهو ينظّف البراز القذِر المميت. وعندما انْتَهَوْا كان النّهار قد ارتفع بما فيه الكفاية لكي يستأنفوا طريقهم.

وساروا ثلاث ساعات، باتّجاه الشّرق على الدّوام، قاطعين سواقي فائضة وجداول ومضاءات كانوا يجتازونها مادّين وجوههم نحو ماء السّماء بقصد الانتعاش، ثمّ توقّفوا عند ضفّة مستنقع لتناول بعض الطعام.

وجمعوا ثماراً وسرطانات رفض البدين أكلها نيئة. وإذ كان لايزال متدثّراً بمعطفه الواقي من المطر فقد أخذ يرتجف من البرد ويواصل شكواه من عدم القدرة على إشعال نار.

«الشُّواريون» أنّه يكفي دهن الجسم بنسغ شجرة المطّاط لإبقاء الأسماك على مَبْعَدة. ونسغ شجرة المطّاط يلسع ويُحرق وكأنّه سيسلخ الجلد، غير أنّ الحكّة تزول ما إن يلامس الجسم الماء البارد، وتهرب أسماك البيرايا عندما تشمّ رائحته.

لقد قال «الشُّواريّ» وهو يشير إلى نقطة على صفحة الترعة:

ـ أسوأ من أسماك البيرايا.

ورأى بقعة داكنة يزيد طولها على متر تنزلق بسرعة.

ـ ما هذا؟

ـ قطّة ـ ببغاء.

سمكة ضخمة. ولقد اصطاد فيما بعد نماذج منها بلغت مترين وزاد وزنها على سبعين كيلوغراماً، وعلم أيضاً أنّ هذا الحيوان ليس شرّيراً ولكنّه ودود إلى حدّ التسبُّب بالموت.

فحين يرى إنساناً في الماء يقترب منه ليُلاعبه، وضرباتُ ذيله كفيلة بأن تكسر له عموده الفقري.

تواصلت الصّدمات الصمّاء في الماء. وربّما كانت تلك قطّة ـ ببّغاء تلتهم الأَرَضَة أو الخنافس أو الحرابي أو الجراد أو الجنادب أو العناكب أو بعض الحيّات النحيلة الطّائرة الّتي انتزعها المطر من أماكنها.

كان ذلكم، في الظّلام، صوتَ الحياة. وكما يقول

«الثُّواريون»: في النّهار هناك الإنسان والغابة. وفي اللّيل فإن الإنسان يكون غابة.

ولقد أصغى إليه بمتعةٍ حتّى خمد.

استيقظ الرّجل الّذي كان عليه أن يحلّ محلّه قبل الموعد فتمطّى مقرقعاً بعظامه وجاء ينضمّ إليه.

ـ لقد نمت بما فيه الكفاية. اذهب وخذ مكاني. لقد دفّأته لك.

ـ لستُ متعباً، وأفضّل أن أنام عندما يصبح الجوّ أقل إظلاماً.

ـ كان هناك شيء يقفز في الماء، أليس كذلك؟

كان العجوز على وشك تحديثه عن الأسماك، بيد أنّ ضجّة جديدة قطعت عليه حديثه، ضجّة آتية من الآجام.

ـ هل سمعت؟

ـ صهْ. تكلّم بصوت خافت.

ـ ما ذاك؟

ـ لست أدري. لكنّ الأمر جِدّيّ بالتّأكيد. أيقظ الآخرين من غير أن تُحْدِث ضجّة.

لم يتأتَّ الوقت للرّجل كي ينهض لأنّ ضوءاً أبيض بَهَرَهما كليهما، ضوءاً غدا أكثر إعشاءً للأبصار بانكساره على رطوبة النّباتات.

كان ذلك هو المحافظ مقترباً، وقد أيقظته الضجّة، وفانوسه مُضاء.

وأمر العجوز بحدّة ومن غير أن يرفع صوته:

ـ أطفئ هذا.

وأجاب البدين وهو يرسل حزمة الضوء في جميع الاتّجاهات ويجهّز مسدّسه:

ـ لماذا؟ هناك شيء وأريد أن أرى ما هو.

ـ قلت لك أن تطفئ هذه القذارة.

وبضربة من جُمْع يده أرسل العجوز الفانوس يتدحرج.

ـ بأيّ حق...

وضاعت أقوال البدين في اصطفاق أجنحة صاخب، وانقضّ شلّال نتِن على الزُّمرة.

ـ تهانينا. ليس علينا إلّا أن نرفع المعسكر بسرعة إذا لم نكن نريد أن تأتي النِّمال لمنازعتنا الغائط الطازج.

لم ينبس المحافظ بكلمة. وتلمّس طريقة للعثور على الفانوس وتبع كيفما اتّفق له الزُّمرةَ الّتي كانت تغادر المكان.

ومَشَوْا حتّى وصلوا إلى مضاءة ساطهم فيها المطر سَوْطاً.

وإذ توقّفوا فقد سأل البدين:

ـ ما الّذي جرى؟ ماذا كان ذاك؟

ـ غائط. ألا تشمّ رائحته؟

ـ أعرف جيّداً أنّه غائط. أكنّا تحت قطيع من القِردة؟

كان ضوء هزيل قد بدأ يُري أطياف الرّجال وأشكال الغابة.

ـ إذا كان ذلك مُفيداً لك يا صاحب السّعادة فإنّه عندما يخيّم المرء في الغابة عليه أن يستقرّ قرب جذع محروق أو مُتحجِّر. فالخفافيش الّتي تعشّش فيه هي خير نذير بالخطر. فبطيران هذه الحيوانات الصّغيرة بالاتّجاه المعاكس لمصدر الصّوت تُطلعنا على المكان الّذي صدر منه. غير أنّك أخفتها بمصباحك وصراخك فطارت وهي تتغوّط فوقنا، إنّها حسّاسة جدّاً مثل جميع القوارض، وعند أدنى نذير بالخطر تقذف بكلّ ما في بطونها لتتخفّف. هيّا، افرك جمجمتك جيّداً إن لم تُرِدْ أن يلتهمك البعوض.

وحاكى المحافظ الآخرين وهو ينظّف البراز القذِر المميت. وعندما انْتَهَوْا كان النّهار قد ارتفع بما فيه الكفاية لكي يستأنفوا طريقهم.

وساروا ثلاث ساعات، باتّجاه الشّرق على الدّوام، قاطعين سواقي فائضة وجداول ومضاءات كانوا يجتازونها مادّين وجوههم نحو ماء السّماء بقصد الانتعاش، ثمّ توقّفوا عند ضفّة مستنقع لتناول بعض الطعام.

وجمعوا ثماراً وسرطانات رفض البدين أكلها نيئة. وإذ كان لايزال متدثّراً بمعطفه الواقي من المطر فقد أخذ يرتجف من البرد ويواصل شكواه من عدم القدرة على إشعال نار.

قال أحد الرّجال:

- إنّنا قريبون جدّاً.

- نعم. بيد أنّنا سوف نقوم بدورة للوصول من خلف. فقد يكون من الأسهل الذّهاب بشكل مباشر بمحاذاة النّهر، إلاّ أنّ البهيمة ذكيّة وفي وسعها أن تُعِدَّ لنا مفاجأة.

ذلك ما قاله العجوز.

ووافق الرّجال وأنزلوا غِذاءهم ببضع جرعات من «الفرونتيرا».

وإذ رأَوْا البدين يبتعد قليلاً ويختبئ خلف شجيرة فقد أخذوا يتدافعون بالمرافق.

- إنّ سمّوه لا يريد أن يُرينا عجيزته.

- إنّه من البلاهة بحيث سيجلس على وكر نمل وهو يحسبه عرشاً.

وأضاف آخر وسط القهقهات:

- أراهن أنّه سوف يطلب ورقاً لتنظيف نفسه.

كانوا يضحكون وراء ظهر «الحلزون» - كما لم يَفُتْهم قطّ أنْ يسمّوه ما إنْ يكونُ غائباً عنهم. وقطعت الضحكاتِ صرخةُ ذُعرٍ تبعتها سلسلة طلقات ناريّة. ستُّ بالتّتابع مُفْرِغةً المسدس بسخاء.

وبرز المحافظ وهو يرفع سرواله وياديهم:

ـ تعالوا! تعالوا! لقد رأيتها. كانت خلفي وكانت على وشك الهجوم عليّ. لقد أصبتها. تعالوا! سوف نبحث عنها.

وذخّروا بنادقهم واندفعوا بالاتّجاه الّذي عيّنه البدين. وتتبّعوا خطّاً عريضاً من الدّم زاد من حماسة المحافظ ووصلوا إلى حيوان طويل الخطم كانت تُرْعِشه خلجات الاحتضار الأخيرة. وكان الفَرْو الأصفر الجميل المُبَقّع متّسخاً بالدّم والوحل. وأخذ الحيوان ينظر إليهم فاتحاً عينيْه الواسعتيْن وأنينٌ خافتٌ يخرج من خطمه الّذي على شكل البوق.

ـ إنّه واحد من دِبَبَة العسل. ألم يكن في وسعك النّظر قبل أن تُطلق من دُميتك القذِرة؟ إنّه لنذير شؤم قتل أحد دِبَبَة العسل. حتّى آخر الأغبياء يعرف ذلك. ليس هناك من حيوان أقلّ منه إيذاء في كلّ الغابة.

جعل الرّجال يهزّون رؤوسهم متأثّرين بسوء طالع البهيمة المنكودة، في حين أعاد المحافظ تذخير سلاحه غير واجد ما يدفع به عن نفسه.

كان الظُّهْر قد انقضى عندما شاهدوا لافتة «ألكزلتسر» الحائلة الألوان الّتي تُعَيّن متجر «ميراندا». وكانت مستطيلاً من الشَبَه الأزرق بحروف. تكاد لا تُقرأ علّقها صاحب المتجر عالياً جدّاً على شجرة مجاورة لكوخه.

ووجدوا المستوطِن على بُعْد بضعة أمتار من الباب. وكان

ظهره مشقوقاً بضربتيْ مخالب ابتداء من اللّوحيْن حتّى الحزام. وإذ كانت الرّقبة قد مُزّقت ببشاعة فقد أبدت الفقرات الواصلة إلى الرّأس.

وكان القتيل منبطحاً على بطنه وهو لايزال يمسك بساطوره.

وجرّه الرّجال إلى الدّاخل من غير أن يحفلوا بنشاط النّمال الفنّي، وكانت قد أقامت في ليلة واحدة جسراً من الأوراق والأغصان لاستغلال الجثّة كما يحلو لها. وفي الدّاخل كان مصباح يعمل بالكربور يشتعل اشتعالاً خفيفاً، وكانت تفوح منه رائحة دهن محروق.

وإذ اقتربوا من الموقد الّذي يعمل بالكاز فقد اكتشفوا مصدر الرّائحة. لقد كان الجهاز لايزال دافئاً. ولم يبق فيه قطرة واحدة من الوقود وكان الفتيل قد استُهلك. وكان في مقلاة بقايا ذنبيْ حرذونيْن مُتفحّميْن.

أخذ المحافظ يتأمّل الجثّة.

ـ لست أفهم. لقد كان «ميراندا» باسلاً، ولم يكن فيه شيء من إنسان رعديد، ولكأنّه قد أصيب بالهلع حتّى إنّه لم يفكّر في إطفاء موقده. تُرى لماذا لم يحبس نفسَه بانتظار القطّة؟ لقد بقيت بندقيّته معلّقة. لماذا لم يستعملها؟

وكان الآخرون يسائلون أنفسهم الأسئلة نفسها.

نزع المحافظ مُشَمَّعه فتقاطر شلّال من العرق حتّى قدميْه.

ودخّن الرّجال وشربوا وهم لايزالون ينظرون إلى الميّت، وأصلح أحدهم الموقد، وبإذنٍ من المحافظ فتحوا بعض علب السردين.

قال أحد الرّجال:

ـ لم يكن شخصاً سيّئاً.

وأضاف آخر:

ـ منذ هجرتْه امرأته وهو يعيش متوحّداً أكثر من عصا أعمى.

وسأل المحافظ:

ـ هل كانت له أُسرة؟

ـ لا. لقد وصل مع أخيه الّذي توفّي بالملاريا منذ زمن بعيد. وقد رحلت زوجته مع مصوّر فوتوغرافي متجوّل ويقال إنّها تعيش في «زامورا». ربّما كان صاحب المركب يعرف أين هي.

وسأل البدين مستزيداً:

ـ أظنّ أنّ متجره كان يدرّ عليه بعض الشيء. هل تعلمون ماذا كان يفعل بماله؟

ـ ماله؟ كان يلعب به بالورق ويحتفظ فقط بالقدر اللّازم لإعادة تموين مخزونه. الأمر هكذا هنا إذا كنت لا تدري. إنّها الغابة توغل في أحشائنا. وإذا لم يكن للمرء نقطة ثابتة يتشبّث بها فإنّه لا ينتهي من الدّوران على نفسه.

وأمّن الرّجال بنوعٍ من تكبُّر شاذّ. وعند ذلك دخل العجوز.

ـ هناك جثّة أخرى في الخارج.

وخرجوا على عجل فاكتشفوا، وقد بلّلهم المطر، القتيل الآخر. وكان ممدّداً وسرواله مُرخىً إلى أسفل. وكانت كتفاه مفلوحتيْن بفعل المخالب، وقدّم لهم نحرُه المفتوح مشهداً كان قد بدأ يصبح مألوفاً لديهم. وكان الساطور المغروس في الأرض يُنبئ بأنّه لم يجد الوقت لاستخدامه.

قال العجوز:

ـ أظنّني فهمت.

وأحاطوا بالجثمان وأخذوا يتابعون في نظرات المحافظ ما يبذله من جهود لكي يعثر هو أيضاً على تفسير.

ـ القتيل هو «بلاسنشيو پونيان»، شخص لم يكن يظهر كثيراً، وربّما كانا على وشك أن يأكلا معاً. أرأيتم ذَنَبيِ الحرذونيْن المحروقيْن؟ إنّ «بلاسنشيو» هو الّذي أحضرهما. إنّ هذه البهائم ليست موجودة في هذه الناحية، ولا بدّ أنّه اصطادهما بعد مسيرة عدّة أيّام في الأدغال. إنّكم لا تعرفونه. لقد كان مُنقّباً. ولم يكن يبحث عن الذّهب مثل هذه العُصبة من المجانين، بل كان مقتنعاً بأنّه من الممكن العثور بعيداً جدّاً، في الدّاخل، على زُمُرُّد. وأتذكّر أنّه كان يتحدّث عن «كولومبيا» وعن حجارة خضراء كبيرة بحجم القبضة. يا للشخص المنكود لا بدّ أنّه كان راغباً في إفراغ أمعائه فخرج. وعلى هذا النّحو فاجأته البهيمة. مقرفصاً ومتشبّثاً بساطوره. وقد هاجمت مواجهةً فغرست مخالبها

في كتفيه وأنيابها في نحره. ولابدّ أنّ «ميرندا» قد سمع الصّراخ فوصل في الوقت المناسب ليشهد أسوأ مشهد، وعندها لم يفكّر في غير إسراج بغلته والفرار. ولقد رأينا أنّه لم يبتعد كثيراً.

وقلب أحد الرّجال الجثّة. وكان ظهرها يحمل آثار غائط. فقال الرجل:

ـ من حسن حظّه على كلّ حال أنّه وجد الوقت ليخرأ.

وتركوا الجثّة مُنبطحةً لكي يغسل المطر المعاند آثار آخر عمل قامت به في هذه الدّنيا.

- ٨ -

قَضَوْا بقيّة النّهار في العناية بالميتيْن.

ولفّوهما في فراش «ميراندا» وجهاً إلى وجه ليجنّبوهما دخول الأبديّة مثل غريبيْن متوحّديْن، ثم خاطوا هذا الكفن المرتجل وربطوا في زواياه الأربع حجارة كبيرة.

وجرّوا حِمْلهم إلى مستنقع قريب ورفعوه ورجّحوه ليُكْسِبوه الانطلاقة اللّازمة وقذفوا به في خيزران المياه الرّاكدة وورودها. وغاص الطّرد مُحْدِثاً فقاقيع وجارفاً نباتاتٍ وضفادعَ مباغَتَة.

وعادوا إلى المتجر وقد بدأت الظلّمة تستولي على الغابة، ووزّع البدين نوبات الحراسة.

وعيّن رجليْن للسهر مدّة أربع ساعات يتولّى بعدهما الحراسة الرّجلان الآخران. وأمّا هو فسينام بلا انقطاع حتّى الصّباح.

وقبل أن يناموا طبخوا أرزّاً بالموز، وما إن انتهت الوجبة حتّى غسل «أنطونيو خوسيه بوليڤار» وجبة أسنانه لوضعها في منديله. ورآه رفاقه يتردّد قليلاً ثمّ يعود، وبالدهشتهم، إلى وضعها في فمه.

وإذ كانت نوبة العجوز في الرّبع الأوّل فقد استحوذ على المصباح العامل بالكربور.

وأخذ زميله في الحراسة ينظر إليه مرتبكاً وهو يتصفّح بعدسته المكبّرة رموز الكتاب المنتظمة.

- أصحيح أنّك تُحْسِن القراءة أيّها الرّفيق؟

- قليلاً.

- وماذا تقرأ؟

- رواية. ولكن اصمُت. إنّك حين تتكلّم تحرّك اللّهب وأرى أنا الحروف تتحرّك.

وابتعد الآخر كيلا يزعجه، بيد أنّ الانتباه الّذي كان العجوز يصرفه إلى الكتاب كان من التركيز بحيث لم يُطِق البقاء بعيداً.

- وعَمَّ تتحدّث هذه؟

- عن الحبّ.

واقترب من جرّاء جواب العجوز وقد تزايد اهتمامه.

- بلا مُزاح؟ بنساء لعوبات ثريّات مشبوبات العواطف وكلّ شيء؟

أغلق العجوز الكتاب بحركة جافية أرقصت لهب المصباح.

- لا. إنّها تتحدّث عن الحبّ الآخر. الحبّ الّذي يسبّب الآلام.

وشعر الرّجل بالخيبة. وحنى كتفيه وابتعد من جديد. وشرب بصلف جرعة طويلة وأشعل سيجاراً وجعل يسنّ ساطوره.

ومرّر الحجر وبصق على المعدن وأعاد تمرير الحجر ثمّ اختبر الشفرة بإصبعه.

وعاد العجوز إلى الاستغراق في كتابه من غير أن يسمح لضجّة الحجر الحادّة فوق الفولاذ بأن تُلهيه، وهو يهمس بالكلام وكأنّه في صلاة.

ـ هيّا، اقرأ بصوت أعلى قليلاً.

ـ تقول جادّاً؟ يهمّك هذا؟

ـ أجل بالطّبع. لقد كنت ذات مرّة في السّينما في «لوبا» وشاهدت فيلماً مكسيكيّاً، فيلماً غراميّاً. كيف السّبيل إلى أن أشرح لك أيّها الرّفيق؟ يا لكثرة ما بَكيْتُ.

ـ ينبغي أن أقرأ لك إذن من البداية، وهكذا تعرف من هم الأخيار ومن هم الأشرار.

عاد «أنطونيو خوسيه بولڤار» إلى الصفحة الأولى. وكان لكثرة ما قرأها قد حفظها عن ظهر قلب.

«وقبّلها «پول» قبلة محمومة، في حين كان صاحب الغندول المتوطئ مع صديقه يتظاهر بالنّظر بعيداً، والغندول المزيّن بالطنافس الوثيرة ينساب بوادعة فوق مياه قنوات البندقيّة».

وقال صوت:

ـ لا تستعجل هكذا أيّها الرّفيق.

ورفع العجوز عينيه. وكان الرّجال الثلاثة يحيطون به. وكان

المحافظ مُتمدِّداً بعيداً قليلاً فوق فراش من الأكياس.

وشرح الّذي تكلّم قبل قليل:

ـ هناك كلمات لا أفهمها.

وسأل آخر:

ـ أتفهمها كلّها أنت؟

وجعل العجوز يفسّر الكلمات المجهولة على طريقته.

وبدت «صاحب الغندول» و«الغندول» ثمّ «القُبلة المحمومة» أوضح قليلاً بعد ساعتيْن من تبادل الآراء المتقطّع بنكات لاذعة. بيد أنّ سرّ المدينة الّتي على النّاس فيها استخدام الزّوارق للانتقال ظلّ مستعصياً على الشّرح.

ـ ربّما كانت تُمطّر طوال الوقت.

ـ أو أنّ الأنهر في حالة فيضان.

ـ لا بدّ أنّهم أشدّ بَلَلاً منّا.

ـ إنّكم تدركون ولاشك. يجرع المرء شرابه من «الفرونتيرا» ويحسّ بالحاجة إلى الخروج للتبوّل، وما الّذي يراه؟ الجيران وهم ينظرون إليك بأفواه كأفواه السّمك.

كان الرّجال يضحكون ويدخّنون ويشربون. وتململ المحافظ في فراشه. وخار من سريره:

ـ لمعلوماتكم فإنّ «البندقيّة» مدينة مبنيّة على مستنقع. وهي موجودة في «إيطاليا».

وعقّب أحدهم قائلاً:

ـ هكذا إذن! والبيوت عائمة مثل الأطواف.

ولاحظ آخر:

ـ إذا كان الأمر كذلك فلماذا المراكب؟ما عليهم إلاّ استخدام بيوتهم للإبحار.

وأعلن المحافظ قائلاً:

ـ ما أشدّ غباءكم! إنّها بيوت من حجر. بل هناك قصور وكاتدرائيّات وقلاع وجسور وشوارع للنّاس. وجميع المباني قائمة على أسس من الحجر.

وسأل العجوز:

ـ وكيف تعرف ذلك؟ أذهبت إلى هناك؟

ـ لا. غير أنّي أملك ثقافة أنا. بل أنا محافظ لأنّني كذلك.

أخذت شروح البدين تُعقّد الأمور.

ـ إذا كنت أفهم حقّاً ما تقول يا صاحب السّعادة فإن هؤلاء النّاس يملكون حجارة تعوم، مثل حجارة الخفّان، ولكنْ حتّى لو كانت كذلك، بل حتّى لو بنى الإنسان بيتاً من حجارة الخفّان فإنّه لا يعوم، هذا أنا متأكّد منه. لابدّ أنّهم يضعون تحتها ألواحاً من الخشب.

أخذ المحافظ رأسه بكلتا يديه.

ـ ولكنّكم حقّاً أغبى ممّا هو الغباء! فكّروا كما حلا لكم. لقد جعلتكم الغابة بُلهاء تماماً. إنّ الله نفسه لا يملك شيئاً بإزاء

حماقتكم. ثمّ هناك أمر آخر: سوف تتوقّفون عن مناداتي بـ«صاحب السّعادة». إنّكم منذ سمعتم طبيب الأسنان وليس على ألسنتكم غير هذه الكلمة.

ـ وكيف تريدنا أن نناديك. يقال للقاضي «يا صاحب الشرف»، وللخوري «يا صاحب السّيادة». وأنت مثلهما، وينبغي أن نطلق عليك اسماً «يا صاحب السّعادة».

أراد البدين أن يُضيف شيئاً، غير أنّ إشارة من العجوز أوقفته. وفهم الرّجال فامتشقوا أسلحتهم وأطفأوا المصابيح وانتظروا.

ترامى من الخارج صوت خافت لجسمٍ يتنقّل بحذر. ولم تكن الخطى تُسمع، بيد أنّ ذلك الجسم كان يُلامس الشجيرات والنباتات. وكان الماء يتوقّف عن المسيل لدى مروره ليشتدّ بعد ذلك انهماره.

كان الجسم المتحرّك يرسم نصف دائرة حول الكوخ. ودنا المحافظ من العجوز على أربع.

ـ أهي البهيمة؟

ـ أجل. وقد شمّت رائحتنا.

انتصب البدين فجأة. وبالرّغم من الظلام فإنّه عثر على الباب وأفرغ مسدّسه خبط عشواء باتّجاه الأدغال.

وأشعل الرّجال المصباح. وهزّوا برؤوسهم من غير أن يعلّقوا

بشيء ونظروا إلى المحافظ وهو يُعيد تذخير مسدّسه.

ـ الذّنب ذنبكم إذا كنت قد أخطأتها. إنّكم تقضون اللّيل في الثّرثرة كالمخنّثين بدلاً من القيام بالحراسة.

ـ يبدو أنّك تملك ثقافة يا صاحب السّعادة. لم يكن أمام البهيمة أيّة فرصة. وكان ينبغي تركها تدور حتّى نتوصّل إلى حسبان المسافة الّتي تفصلنا عنها. إنّها كانت ستكون في متناولنا بعد دورتين اثنتين لا غير.

ودافع البدين عن نفسه قائلاً:

ـ طبعاً، طبعاً. أنت تعرف كلّ شيء. قد أكون أصبتها.

ـ اذهب وانظر إذا كنت مُصرّاً. وإذا هاجمتك بعوضة فلا تطلق عليّها النّار لأنّ ذلك سيُعكّر علينا نومنا.

واستغلّوا في الفجر النّور الشاحب المتسرّب من سقف الغابة للتفتيش في الجوار. ولم يكن المطر قد محا الآثار الّتي تركتها البهيمة وهي تسحق النباتات. ولم يُشاهَد أيُّ دم على الأوراق الملتفّة وكان الدّرب يوغل ضائعاً في أعماق الأدغال.

عادوا إلى الكوخ وشربوا قهوة سوداء. وقال المحافظ:

ـ إن ما لا يروقني هو أنّ هذه البهيمة تطوف على بُعْد أقلّ من خمسة كيلومترات من «ألْ إيديليو». فكم من الوقت يلزم لقطّة برّيّة لقطع المسافة؟

وأجاب العجوز:

- أقلّ ممّا يلزمنا نحن. فلها أربع قوائم، وهي تُحسن القفز فوق مناقع الماء ولا تلبس حذاءين.

فهم المحافظ أنّه قد خسر ما فيه الكفاية من الوثوق به في أعين هؤلاء الرّجال. والبقاء وقتاً أطول مع هذا العجوز الّذي أخذ يزداد سخرية به لن يكون من شأنه إلاّ مضاعفة سُمعته شخصاً عديمَ الفائدة، بل ربّما جباناً.

ووجد مخرجاً يبدو منطقيّاً ويسمح له بحماية ظهره.

- اسمع يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار» لسوف نعقد صلحاً. أنت خبير من خبراء الغابة. وتعرفها خيراً ممّا تعرف نفسك. ولسنا نفعل غير ما يُزعجك. قُصَّ أثَرَها واقتلْها. ولسوف تدفع لك «الدّولة» خمسة آلاف قالب سُكّر. سوف تبقى هنا وتفعل كما يحلو لك. ونعود نحن في هذه الأثناء لحماية القرية. خمسة آلاف قالب سُكّر. ما قولك؟

أصغى العجوز إلى عَرْض البدين من غير أن يرفّ له جفن.

لقد كان الأمر الوحيد المعقول في الواقع هو العودة إلى «ألْ إيديليو». فلن يطول الأمر بالحيوان وهو يواصل مطاردته حتّى يتوجّه إلى القرية، وسيكون من السّهل نصب فخّ له هناك. ولسوف تبحث الأنثى بالضرورة عن ضحايا جُدُد، وقد كان من البَلَه الزعم بمنازعتها الأرض الّتي تملكها.

كان المحافظ يرغب في التخلّص منه. ولقد جرحت ردوده

السّريعة والصّائبة مبادئه بوصفه حيواناً مُستبِدّاً بالسّلطة ، وقد وجد صيغة أنيقة ليتخلّص من عبئه.

لم يكن العجوز ليحفل أكثر من ذلك بما يمكن أن يفكّر فيه البدين الغارق بالعرق. ولم تكن المكافأة لتهمّه كثيراً أيضاً. فلقد كان في رأسه شواغل وهموم أخرى.

شيءٌ ما كان يحدّثه بأنّ البهيمة لم تكن بعيدة. بل ربّما كانت في هذه اللّحظة بالذّات ترقُبهم. وفوق ذلك فإنّه كان يتساءل منذ بعض الوقت عن السّبب الّذي يجعله لامبالياً بكلّ أولئك الضّحايا. فربّما كانت حياته الماضية بين «الشّواريين» هي الّتي تجعله ينظر إلى أولئك الموتى وكأنّهم عمل من أعمال العدالة. عمل دامٍ، بيد أنّه لا يمكن تغييره وفقاً لقانون العيْن بالعيْن.

إنّ تلك البهيمة الضارية قد يكون الأبيض ذبح صغارها، وربّما ذَكَرها أيضاً. ومن جهة ثانية فإنّ سلوكها يدعو إلى التفكير في أنّها، وهي تقترب بشكل خطِر من الرّجال الّذين قتلتهم في اللّيلة السّابقة، وقبل ذلك، لتقتلَ «بلاسنشيو» و«ميراندا»، إنّما كانت تبحث عن الموت.

وكانت إرادة مجهولة تُملي عليه أنّ قتلها كان عملاً رحيماً لا رادّ له، وإن لم تكن له أيّة علاقة برحمة مَنْ يغفرون وكأنّهم يؤدّون صدقة. فلقد كانت الأنثى تسعى إلى فرصة للموت في معركة مكشوفة، في مبارزة ليس في وسع المحافظ، ولا أيّ من

رجاله، أن يُدرك مغزاها. وردّد المحافظ قائلاً:

ـ ما قولك أيّها العجوز؟

ـ اتّفقنا. ولكنّ اترك لي سيجاراتٍ وأعواد ثقاب وطلقاتٍ إضافيّة.

زفر المحافظ زفرة ارتياح وأعطاه ما طلب.

أسرعت الزُّمْرة في ترتيب تفاصيل العودة. وتبادلوا الوداع واهتمّ «أنطونيو خوسيه بوليڤار» بإحكام إغلاق باب الكوخ وشُبّاكه.

أقبلت الظُّلْمة منذ منتصف العصر، واستأنف العجوز قراءته وانتظاره تحت ضوء المصباح العَبوس محاطاً بانهمار الماء من خلال الأوراق.

وكان قد عاد إلى الصّفحة الأولى.

لم يكن مسروراً بعدم التوصّل إلى فهم الحُبكة. وأخذ يستعرض العبارات الّتي كان يعرفها عن ظهر قلب، وكانت تخرج من فمه عارية من كلّ معنى. فقد كانت أفكاره تسافر في جميع الاتّجاهات بحثاً عن نقطة مُعيَّنة يستقرّ عندها.

ـ ربّما كنتُ خائفاً.

وفكّر في الموعظة الثّوريّة النّاصحة بالاختباء من الخوف وأطفأ المصباح. وتمدّد فوق الأكياس في الظّلام وبندقيّته المذخّرة

على صدره، وترك جميع أفكاره تهدأ شأن الحصى عندما يلامس قعر النّهر.

هيا يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار» ما الّذي يجري لك؟

ليست هذه هي المرّة الأولى تواجه فيها وحشاً ضارياً مُصاباً بالجنون. ما الّذي يجعلك فارغ الصّبر إلى هذا الحدّ؟ الانتظار؟ أكنت تفضّل أن يظهر على الفور ويقتحم الباب وتكون النّهاية سريعة للغاية؟ إنّك لتعلم أن ذلك مستحيل. أنت تعلم أنّه ما من حيوان أبله إلى درجة مهاجمة عرين غريب. ولماذا أنت واثق جدّاً من أنّك أنت بالضبط من ستبحث عنه البهيمة؟ ألا تظنّ أنّها بكلّ ما برهنت عنه من ذكاء سوف تفضّل بالحري زُمْرة الرّجال؟ إنّ في مقدورها أن تتبعهم وتحذفهم من الوجود واحداً إثر واحد حتّى قبل أن يصلوا إلى «ألْ إيديليو». لقد كنت تعلم أنّها كفيلة بذلك، وكان عليك أن تحذّرهم قائلاً: «لا يترك أحدكم الآخرين متراً واحداً. ظلّوا متيقّظين، وعسكروا من غير أن تناموا، وليكنْ ذلك على الدّوام فوق جُرُف النّهر». وإنّك لتعلم أنّه حتّى بهذا الشّكل فإنّه من السّهل على الوحش الضّاري التربّص بهم، والوثوب عليهم، وذبح أحدهم، والاختباء قبل أن يثوب الآخرون إلى رشدهم من ذعرهم، للإعداد للهجوم التّالي. ربّما كنت تفكّر في أنّ القطّة البرّيّة تنظر إليك بوصفك صِنواً لها؟ لا تكن مغروراً يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار». واذكر

أنّك لستَ صيّاداً، وأنّك رفضت أنتَ نفسُك على الدّوام هذا النعت، وأنّ الضّواري المنتمية إلى جنس القطط تتبع الحقيقيّن، الصيّادين الحقيقيين، من جرّاء رائحةِ الخوفِ والذّكَرِ المنتصب الصّادرةِ عنهم. كلاّ، لست صيّاداً حقيقيّاً. فغالباً ما يتحدّث عنك أهالي «ألْ إيديليو» فيدعونك «الصيّاد»، وأنت تقول لهم إنّ ذلك غير صحيح لأنّ الصيّادين يقتلون للتغلّب على الخوف الّذي يجعلهم مجانين ويُفسد كياناتهم من الدّاخل. وكم مرّة عاينت ظهور جماعات من النّاس المحمومين المدجّجين بالسّلاح وهم يتوغّلون في الغابة. وما هي إلاّ أسابيع حتّى كنت تراهم عائدين بصُرر من جلود أكلة النّمال ونمْس الماء ودِببة العسل وأفاعي «البوا» والحراذين والقطط البرّيّة الصغيرة، ولكنّك لم ترهم قطّ راجعين ببقايا خصم حقيقي مثل الأنثى الّتي تنتظرها. لقد رأيتهم يشملون أمام كدسات جلودهم لإخفاء الخوف الّذي أوحى به إليهم اليقين بأنّ عدوّاً جديراً بهذا الاسم قد رآهم في أعماق الغابة وشمّ رائحتهم واحتقرهم. وإنّه لصحيح أنّ الصيّادين قد أصبحوا أقلّ عدداً لأنّ الحيوانات أوغلت نحو الشرق قاطعة الجبال الوعِرة، بعيداً، بعيداً جدّاً، حتّى إنّ آخر أفعى كبيرة شوهدت أصبحت تقيم في الأراضي البرازيليّة. ومع ذلك فإنّك رأيت واصطدت أفاعي كبيرة غير بعيد من هنا.

وكانت أعمال الصيد الأولى هذه واقعةَ عدالةٍ، أو انتقام.

وكثيراً ما قلّبت الأمر في جميع الاتّجاهات فلم تتوصّل إلى معرفة الفَرْق. فلقد كانت الزّاحفة قد فاجأت أحد أبناء المستوطنين وهو يستحمّ. وكنت تحبّ الطفل. ولم يكن قد بلغ الثّانيّة عشرة وقد تركتّه الأفعى الكبيرة رخواً مثل قِربة. أتذكر؟ لقد تبعت الأثر في فلوكة ووجدت الشاطئ الّذي كان يتشمّس فوقه. وعندها وضعتَ بعضاً من حيوانات نمس الماء الميّتة كطُعْم وانتظرت. ولقد كنتَ في ذلك الوقت شابّاً رشيقاً، وكنتَ تعلم أنّ هذه الرّشاقة تمثّل حظّك الوحيد في ألاّ تتحوّل إلى مأدبة لإلّه المياه. وكانت قفزةً جميلة. والسّاطور في اليد. وكانت ضربةً وحيدة قاضية. وسقط رأس الأفعى في الرّمل، وقبل أن يتمكّن من لمسك كنت تقفز إلى حِمى الأجمات متحاشياً ترنّحات الجسد القويّ. أحد عشر أو اثنا عشر متراً من الحقد. أحد عشر أو اثنا عشر متراً من الجلد بلون الزيتون القاتم بدوائر سوداء، لاتزال تحاول أن تقتل وقد سبق أن أصبحت ميتة.

وكانت عمليّة الصّيد الأخرى لإثبات عرفانك بالجميل للساحر «الشُّواريّ» الّذي كان قد أنقذ حياتك. هل تذكر؟ لقد أعدتَ حادثة ترك اللّحم على الشاطئ وانتظرتَ، جاثماً فوق شجرة، أن تراها تخرج من النّهر. وكان الأمر في هذه المرّة من غير حقد. لقد رأيتَها تزدرد القوارض وجهّزتَ نَبْلتك فغلّفتَ ظُبتها الحادّة بنسيج عنكبوت، ودهنْتَها بالسّم، وأدخلتَها في السبطانة وسدّدتَ باحثاً عن أصل الجُمجمة.

وتلقّت الزاحفة النبلة فانتصبت إلى ثلاثة أرباعها تقريباً، ورأيت من الشجرة الّتي كنت تختبئ فيها نظرة عينيها الصفراوين، وبؤبؤيها الشاقوليّين اللّذين كانا يبحثان عنك ولم يجدا الوقت الكافي لبلوغك لأنّ السمّ يفعل بسرعة كبيرة.

ثمّ كان الاحتفال بالسَّلْخ، وقد انبغى السير خمس عشرة أو عشرين خطوةً وأنت تشقّ بالساطور الحيوان الّذي اكتسى لحمه الورديّ البارد بالرّمل.

هل تذكر؟ فعندما أعطيت «الشُّواريين» الجلد قالوا لك إنّك لم تكن واحداً منهم غير أنّك تنتمي إلى هذا المكان.

وكذلك القطط البرّيّة ليست غريبة عنك، باستثناء أنّك لم تقتل صغيراً قطّ، لا صغيرَ قطّةٍ برّيّة ولا صغيراً من جنس آخر. قتلتَ فقط حيوانات بالغة، كما يقضي القانون «الشُّواريّ». وأنت تعلم أنّ القطط البرّيّة حيوانات عجيبة ذات سلوك غير متوقّع. وهي لا تملك قوّة الفهود، بيد أنّها تبرهن عن ذكاء مُرْهَف. ويقول «الشُّواريّون»: «إذا كان المَراح هيّناً وكنتَ تظنّ أنّك تمسك بالقطّة البرّيّة فمعنى ذلك أنّها وراءك وعيناها مثبّتتان في قفاك.» وهذا صحيح.

وذات مرّة استطعت، بطلب من المستوطنين، أن تقيس مدى حيلة قطّ مُبَقَّع. فلقد كان نموذجٌ ضخمٌ جدّاً منه يذبح الأبقار والبغال فسألوك تقديم العون. وكانت المطاردة صعبة. فقد

تركك الحيوان بادئ الأمر تتبعه وهو يقودك إلى السلسلة الدّاعمة لسلسلة جبال «الكوندور»، وهي أرض ذات نباتات واطئة تشكّل موضعاً نموذجيّاً للكمائن على مستوى التُّربة. وأدركتَ الفخَّ وحاولتَ العودة إلى الغابة العميقة، غير أنّ القطّ كان يقطع عليك الطريق مُظهراً نفسه، ولكنّه لم يمكّنك قطّ من التسديد إليه. وقد أطلقت مرّتيْن أو ثلاثاً من غير أن تُصيبه وانتهى بك الأمر إلى التحقُّق من أنّ القطّ كان يرغب في إنهاك قواك قبل الهجمة الأخيرة. ولقد أفهمك أنّه يعرف كيف ينتظر وأنّه ربّما كان عارفاً أيضاً بأنّك لا تملك كثيراً من الذخيرة.

لقد كانت تلك المعركة شريفة حافلة بالفخار. هل تذكر؟ كنت تنتظر من غير أن تحرّك عضلة واحدة وأنت تصفع نفسَك بين الفينة والفينة لإبعاد النُّعاس. ثلاثة أيّام من الانتظار إلى أن يستشعر القطّ ما يكفي من الثّقة بنفسه كي يندفع إلى الهجوم. وإنّها لخدعة جيّدة أن تنتظر مُتمدِّداً على الأرض وبندقيّتك مُذخَّرة.

لِمَ كلّ هذه الذكريات؟ أَلأنّ هذه الأنثى تشغل جميع أفكارك؟ أم لأنّكما تعلمان كلاكما أنّكما متشابهان؟ فبعد أربع قتلات أصبحتْ تعرف عن النّاس قَدْرَ معرفتك عن القطط البرّيّة. بل ربّما كنتَ أقلّ معرفة منها. فـ«الشُّواريوّن» لا يصطادون القطّ البرّيّ. فلحمه لايؤكل وجلد بهيمة واحدة يكفي لصنع زينة

تدوم عدّة أجيال. «الشُّواريّون»: أكنت تتمنّى أن يكون معك واحد منهم؟ أجل بالطّبع، صديقك «نوشينيو».

- هل تقصّ الأثر يا أخي؟

لسوف يرفض «الشُّواريّ». سيقول لك وهو يُكثر البصاق لتعلم أنّه يقول الحقّ، إنّ الأمر لا يهمّه. وأنّه ليس من شأنه. أنت صيّاد في خدمة «البيض»، وتملك بندقيّة، وتنتهك الموت بإحاطته بالألم. وسوف يقول لك صديقك «نوشينيو» إنّ الحيوانات الوحيدة الّتي يقتلها «الشُّواريّون» لمجرّد القتل هي الحيوانات الكسولة.

- ولِمَ يا أخي؟ إنّ الحيوانات الكسولة تقضي وقتها في النّوم مُلتصِقة بالأشجار.

وقبل أن يُجيبك صديقك «نوشينيو» سوف يُطلق ضرطة مُدوّية ليتأكّد من أنّه ما من كسول يسمعه ويقول لك إنّ زعيماً «شُواريّاً» في غابر الأزمان أصبح شرّيراً ودَمَويّاً. وكان يقتل «الشُّواريّين» الطيّبين بلا سبب فقرّر الأجداد قتله. وعندما ألفى «تَنَوْبي»، الزعيمُ الدَمَويُّ، نفسهَ مهدَّداً ولّى الأدبار متحوِّلاً إلى حيوان كسول، وإذ كانت هذه الحيوانات تتجمّع كلّها معاً، شأنها شأن القرود، فإنّه لا يمكن التكهُّن في أيّها يختبئ «الشُّواريّ» المحكوم عليه بالموت. وهذا هو السبب في أنّه ينبغي قتل جميع الحيوانات الكسولة.

ـ لقد جرى الأمر على هذا النّحو.

ذلك ما سوف يقوله الصّديق «نوشينيو» وهو يبصق للمرّة الأخيرة قبل أن يذهب، لأنّ «الشُواريّين» يذهبون على الدّوام عندما يفرغون من قصّ حكاية مُتجنّبين الأسئلة الّتي تولّد الأكاذيب.

من أين تأتيك كلّ هذه الأفكار؟ هيّا يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار». هيّا أيّها العجوز. تُرى تحت أيّة نباتات هي تتربّص؟ هل استولى عليك الخوف، ألست قادراً على عمل شيء، لكي تتوارى؟ إذا كان الأمر كذلك فإنّ عيون الخوف تستطيع رؤيتك مثلما ترى أنت ضياء الفجر وهو يتسرّب من الشقوق بين القَصَب.

شرب عدّة أقداح من القهوة السوداء ثمّ بدأ بتجهيز نفسه. فأذاب شموعاً وغمس الطلقات في الشحم ثمّ قطّرها حتّى لم تَعُدْ مغطّاة إلاّ بقشرة رقيقة منه. وبهذه الطريقة فإنّها حتّى لو سقطت في الماء فستبقى جافّة.

ودهن جبهته بما تبقّى من شحم مُغطّياً بشكل خاص حاجبيه على نحو شكّل معه نوعاً من مظلّة واقية للعينين. وهكذا فإنّه إذا كان عليه أن يُجابه الحيوان في مضاءة فإنّ بصره سيكون مَحْمِيّاً من المطر.

وبعد أن تأكّد في نهاية الأمر من نصل ساطوره خرج إلى الغابة لتحديد سَاحة لقصّ أثَر الحيوان.

ورسم أوّلاً شُعاعاً من مئتيّ خطوة ابتداء من الكوخ باتّجاه الشّرق وهو يتبع العلامات التي عُثر عليها في العشيّة.

وإذ وصل إلى نهاية الشُّعاع فقط خطّ قوس دائرة باتّجاه الجنوب الغربيّ.

واكتشف نباتات مسحوقة وقد انطمرت سوقها في الوحل. وهنا كان الحيوان قد لَبَدَ قبل أن يسير إلى الكوخ، وقد تكرّرت هذه الجُزيّرات من النباتات الجريحة على مسافات متساوقة لتختفي في نهاية الأمر عند مُنْحَدَر من مُنْحَدَرات الجبل.

وأهمل تلك الآثار القديمة وواصل بحثه.

ووجد تحت الأوراق الكبيرة لشجرة موز برّيّة علامات قوائم الحيوان وقد انحفرت بوضوح. وكانت كبيرة في مثل حجم قبضة إنسان راشد تقريباً، وإلى جانب آثار الخطى هذه لاحظ تفاصيل أخرى حكت له عن مسلك الحيوان.

لم تكن الأنثى تُطارِد. فالسوق المكسورة حول علامات القوائم كانت مناقضة لطريقة المطاردة الّتي يقوم بها أيّ حيوان من فصيلة القطط. فقد كانت الأنثى تحرّك ذنبها مجنونةً إلى حدّ الطيش، مهتاجةً من جرّاء مجاورة ضحاياها. لا، لم تكن تُطارِد. لقد كانت تتنقّل متيقّنة من أنّها تتعامل مع جنس أدنى منها.

وتخيّلها في هذا المكان بالذّات مهزولة لاهثة مكروبة شاخصة العينيْن متحجّرة النّظرة وجميع عضلاتها مسترخية وذيلها يقرع الأرض بلذّة شهوانيّة.

ـ حسناً يا بهيمتي، الآن أعرف كيف تتنقّلين. يبقى أن أعرف أين أنتِ.

لقد تحدّث إلى الغابة وأجابه المطر وحده.

وإذ زاد من شُعاع عمله فقد ابتعد عن الكوخ ووصل إلى مرتفَع خفيف من الأرض أتاح له، على الرّغم من المطر، نقطة يُبصر منها كلّ الفضاء الّذي كان قد قطعه. ووراء ذلك كانت النباتات أقصر وأكثف متناقضة مع منطقة الأشجار العالية الّتي كانت تحميه من هجمة على مستوى التُربة. وقرّر مغادرة هذا الارتفاع المنخفض والسّير بخطّ مستقيم نحو الغرب باتّجاه نهر «ياكومبي» الّذي كان يجري على بُعْد قليل.

وقبل الظّهر بقليل توقّف المطر فشغل ذلك باله. فقد كان ينبغي أن يستمرّ هطول المطر وإلّا بدأ التبّخر وضاعت الغابة في ضباب كثيف سوف يمنعه من التّنفس والرّؤية من خلاله إلى أبعد من خطوة واحدة.

وفجأة ثقبت ملايين الإبر المفضّضة سقف الغابة مضيئةً بقوةٍ النّقاطَ الّتي كانت تتساقط منها. ووجد نفسه تحت مُنْفَرَج بين الغيوم مغموراً بانعكاسات أشعّة الشمس الّتي كانت تلفح

النبات الرّطب. وفرك عينيه وهو يشتم ويلعن، وأسرع، محاطاً بمئة قوس قُزَح عابرة، بالابتعاد قبل أن يبدأ التبخُّر المرهوب. وعندها رآها.

فإذ نبّهه صوت ماء ساقط على غير انتظار فقد التفت وتمكّن من رؤيتها متحرّكة نحو الجنوب، على بُعْد خمسين متراً.

وكانت تنتقل ببطء فاغرة شدقها وذيلها يَسُوط خاصرتيْها. وقدّر طولها فإذا هو متران من الرّأس إلى الذنب. وإذا ما انتصبت على قائمتيها الخلفيّتيْن فإنّ قامتها تفوق قامة كلب ألمانيّ من كلاب الرُّعاة.

غابت البهيمة وراء شُجيرة ثمّ ظهرت من جديد على الفور تقريباً. وكانت تتّجه هذه المرّة نحو الشمال. وصرخ بها وهو يتأهّب مستنداً إلى شجرة:

ـ أعرف الخُدعة. إذا كنتِ تريدين أن نُصفّي هذا هنا فأنا موافق وسأبقى. ففي سحابة البُخار لن تَرَيْ أنتِ أيضاً شيئاً.

أحدث توقّف المطر إقبال البعوض على الفور. وهاجم باحثاً عن الشّفتيْن والجفون وأقلّ ركنٍ حسّاس من الجلْد. وإذ كان دقيقاً جدّاً فقد أخذ يدخل في المنخريْن والأُذنيْن ويتغلغل في الشعر. وأسرع يضع سيجاراً في فمه ويلوكه. وجعل منه حساءً ثمّ دهن بتلك العجينة الحافلة بالرّيق وجهه وذراعيْه.

ولحسن الحظ أن دام الانفراج قليلاً وعاد المطر إلى الانهمار

أشدَّ وأكثف. ومعه عاد الهدوء، ولم يَعُدْ يُسمع غير صوت المطر متغلغلاً بين الأوراق.

وظهرت الأنثى مرّات كثيرة متنقّلة على الدوام في مسار من الشمال إلى الجنوب.

وواصل العجوز دراسة أوضاعها. وكان يتبع حركات البهيمة ليكتشف في الأجمات النّقطة الّتي كانت تستدير عندها باتّجاه الشمال لاستفزازه من جديد.

ـ أنا هنا. ذلك أنا، «أنطونيو خوسيه بوليڤار پروانيو»، وأمّا الصّبر فعندي منه فائض للبيْع. إنّكِ لحيوان مدهش، ما في ذلك شكّ وإنّي لأتساءل عمّا إذا كان مسلككِ ذكيّاً أو قانطاً. لِمَ لا تدورين حولي، لِمَ لا تتظاهرين بمهاجمتي. لِمَ لا تنطلقين نحو الشرق لكي تجرّيني للّحاق بك؟ إنّكِ تنطلقين من الشمال إلى الجنوب وتستديرين جهة الغرب ثمَّ تقومين بالرّحلة نفسها بالاتّجاه المعاكس. هل تحسبينني أبله؟ إنّك تقطعين عليّ طريق النّهر. ذلك هو مخطّطك. تريدين رؤيتي وأنا أفرّ إلى داخل الغابة فتلحقين بي إلى هناك. أنا لست أحمق إلى هذا الحدّ يا صديقتي. وأنتِ لست من الذكاء بالقَدْر الّذي كنت أظنّ.

نظر إليها وهي تتنقّل، وكان على وشك أن يطلق النّار عدّة مرّات. بيد أنّه لم يفعل ذلك. فقد كان يعرف أنّ رمايته ينبغي أن تكون أكيدة ونهائيّة. فلو قُدِّر أن جرح الأنثى وحسبُ فإنّها

لن تَدَعَ له الوقت لإعادة تدخير سلاحه. ومن جهة أخرى فإنَّ عطلاً في الزِنادَيْن سوف يجعل العيارَيْن ينطلقان في وقت معاً.

وانقضت السّاعات، وعندما بدأ النّور يتضاءل علم أنّ لعبة البهيمة لم تكن تتمثّل في دفعه باتّجاه الشرق. لقد كانت تريده هنا، في هذا الموضع، وكانت تنتظر حلول الظلام لمهاجمته.

وقدّر العجوز أنّه مايزال يملك ساعة من الضوء، وأنّ عليه أن يستغلّ هذه المهلة للوصول إلى حافّة النّهر والبحث فيها عن مكان آمن.

وانتظر اللّحظة الّتي ستقوم فيها الأنثى، وقد وصلت إلى الطرف الجنوبيّ من مسارها، باستدارتها لتندفع راكضة باتّجاه النّهر.

ووصل إلى أرض فُلحت قديماً وتتيح له الإسراع فاجتازها وبندقيّته مشدودة إلى صدره. وكان في وسعه بقليل من حُسْن الطالع أن يبلغ النّهر قبل أن تكتشف الأنثى محاولته الهرب. وكان يعلم أنّه لم يكن بعيداً من مُخيَّم منقِّبين مهجورٍ يستطيع أن يجد فيه ملاذاً.

وطرِب وهو يسمع صوت النّهر الفائض. فقد كان قريباً جدّاً. ولم يبقَ أمامه إلّا أن يهبط مُنْحَدَراً طوله حواليْ خمسة عشر متراً ومغطّى بالسَّرخس لكي يصل إلى الجُرُف، عندما هاجمتِ البهيمة.

فـلا بدّ أنّـه عندمـا اكتشفت الأنثى فـراره تحـرّكت بقَـدْر من السّرعة وقدْر من الصّمت تمكّنت معهما من الرّكض بمـوازاته من غير أن يُلاحظ ذلك حتّى وجد نفسه بمحاذاتها.

وتلقّى صـدمة القـائمتيْن الأمـاميّتـيْن وتـدحـرج عـلى امتـداد المُنْحَدَر وهو يدور على نفسه.

ونهضَ شاعراً بالغثيان وهو شاهر ساطوره بكلتا يـديه وانتـظر المعركة الفاصلة.

وفوقه كانت الأنثى تحرّك ذيلها بشكل جنونيّ. وكانت الأذنان الصغـيرتان تـرتعشان ملتقـطتيْن كـلّ أصوات الغـابة، إلاّ أنّها لم تهاجم.

وإذ عـرت العجوز الـدهشة فقـد تحرّك عـلى مهل لاسـترجاع بندقيّته.

ـ لِمَ لا تهاجمين؟ ما تكون هذه اللّعبة؟

وجهّـز الزنـاديْن وسـدّد. فعـلى هـذا البُعْـد فـإنّـه لا يمكن أن يخطئها.

وفـوق، لم تكن عينا البهيمـة تفارقـانـه. وبغتـةً أطلقت زأرة حزينة مُتْعَبَة، وانتصبت على قائمتيْها.

وسُمـع جواب الـذّكر خـائراً من مكـان قـريب جـدّاً لم يجـد العجوز صعوبة في تحديده.

كان أصغر جِرماً من الأنثى، وكان ممدَّداً في ظلّ جذع شجرة يابسة. وكان جلده ملتصقاً بعظامه وقد اقتلعت طلقة ناريّة إحدى فَخِذَيْه تقريباً. ولم يكن يكاد يتنفّس، وكان بادياً أنّ احتضاره كان مؤلماً جدّاً.

وصرخ العجوز:

ـ هذا ما كنت تريدينه؟ أن أطلق عليه رصاصة الرّحمة؟

وتوارت الأنثى بين الأوراق.

اقترب من الذّكَر الجريح وداعب رأسه. ورفع الحيوان أحد جفنيْه بتثاقل. وإذا تفحّص العجوز الجرح بمزيد من الدّقّة فقد رأى أنّ النّمال قد بدأت بالتهامه.

ووضع فوهَتَي البندقيّة على صدر الحيوان.

ـ اعذرني أيّها الرّفيق. لقد أفسد علينا ذلك الأبيض القذر حياتنا كلّنا.

وأطلق.

لم يكن يرى الأنثى، غير أنّه كان يتكهّن بوجودها فوقه مختبئة تُرْعِشها دموع شبه إنسانيّة.

أعاد تذخير سلاحه ومشى بلا تحفُّظ إلى الشاطئ الّذي طالما تاق إليه. ولم يقطع مئة متر حتّى استطاع رؤية الأنثى وقد نزلت لاحقة بالذّكَر الميت.

عندما وصل إلى المركز الّذي كان المنقّبون عن الذّهب قد هجروه كان اللّيل قد أرخى تقريباً سدوله. واكتشف أنّ الأمطار كانت قد جرفت البناء القصبيّ. وألقى نظرة سريعة حوله وسُرَّ باكتشاف فلوكة محطّمة مقلوبة على الشاطئ.

ووجد كذلك كيساً فيه شرائح موز مجفّف فملأ جيوبه منها وانزلق تحت بطن الفلوكة. وزفر ارتياحاً وهو يستلقي على ظهره آمناً مطمئنّاً.

ـ لقد حالفنا الحظّ يا «أنطونيو خوسيه بوليڤار». لقد كان من الممكن أن ينكسر عدد من عظامك وأنت تسقط. أجل، إنّه لحظّ حقيقي ذلك الفِراشُ من السَّرْخس.

وضع البندقيّة والسّاطور عند متناول يده. وكان بطن الفلوكة يؤمّن ارتفاعاً كافياً لكي يُقرفص إذا احتاج إلى التقدّم أو التقهقر. وكان طول الفلوكة تسعة أمتار وفيها شقوق سبّبتها الحجارة الحادّة الّتي تكثر في مجاري المياه السّريعة المدوّمة.

وإذ كان مستلقياً على هذا النّحو فقد أكل حفنة من الموز المجفّف وأشعل سيجاراً ودخّن بتلذّذ. ولقد كان مُتْعَباً جدّاً فلم يلبث أن نام.

وحلم حلماً غريباً. رأى نفسه وقد طُلي جسده بألوان حيّة «البوا» الزّاهية وجلس على ضفّة النّهر للتّمتع بمنظر مجرى المياه.

وقبالته كان شيء يتحرّك في الهواء بين الأوراق على سطح المياه الهادئة في أعماق النّهر بالذّات. شيء بدا أنّه تشكّل بجميع الأشكال وكان يغتذي بها في الوقت نفسه. وكان يتبدّل باستمرار من غير أن يُتيح للعينيْن المفزّعتين وقتاً للتعوّد عليه. فيتّخذ بغتة مظهر ببّغاء كبيرة برّاقة الرّيش، ثمّ ينتقل إلى مظهر سمكة من أسماك القطط ـ الببّغاوات تتقافز فاغرة شدقها فتبتلع القمر ثمّ تعود إلى السّقوط في الماء بعنف صقر منقضّ على رجل. ولم يكن لهذا الشيء شكل محدّد ودقيق، غير أنّ عينيْه كانتا تظلاّن على الدوام، مهما تكن المظاهر الّتي يتّخذها، صفراويْن وبرّاقتيْن.

ـ إنّه موتك بالذّات وقد تنكّر لمفاجأتك. وإذا كان قد فعل ذلك فلأنّ ساعتك لمّا تَحِنْ. اطرده.

ذلك ما كان يقوله له السّاحر «الشُّواريّ» وهو يدلّك جسمه بالرّماد البارد.

كان الشّكل ذو العينيْن الصفراويْن يتنقّل في كلّ الاتّجاهات، فيبتعد وقد امتصّه الخطّ الأخضر الذي كان الأفق لايزال ينشره، وكانت الطيور تعود إلى التدويم وهي تغرّد ببلاغاتها عن رغد عيشها وهنائها. ثمّ يعود إلى الظّهور في غيمة سوداء تهبط بعنف فينهمر وابل من العيون الصّفراء فوق الغابة متشبّثاً بالأغصان والتعريشات، مُضيئاً الأدغال بصُفرة متّقدة تجرّه من جديد إلى جنون الخوف والحمّى. ولقد أراد أن يصرخ، بيد أنّ قوارض

الـذُّعر كـانت تقطّع لسـانه بـأسنـانها. وأراد أن يـأكـل، إلّا أنّ الحيّـات النحيلة الطائـرة كانت تقيّـد ساقيـه. وأراد أن يعود إلى كوخه ويستعيـد مكانـه في اللّوحة الّتي كـانت تصوِّره إلى جـانب «دولوريس أنكرنسيون دَلْ سنتيزيمو ساكرمنتو استوبينيان أوتاقالو» ويهجـر هـذه الأراضي الحـافلة بالقسـوة، غير أنّ العيـون الصُّفْر كانت في كلّ مكان، وكانت تقطع عليه الطريق، أجل، في كـلّ مكان في وقت واحد، وشعر في هذه اللّحظة بالذّات بأنّها كـانت فـوق الفلوكة بـالضبط، وكانت هـذه تترجّـح تحت وطـأة ذلـك الجسم الّذي كان يسير فوق البَشَرة الخشبيّة.

وكتم أنفاسه لكي يفهم ما يجري.

لا. لم يكن في عالم الأحلام. فقد كانت الأنثى فوقه بالفعل، وكـانت تروح وتجيء، وإذ كـان الخشب أملس جدّاً وقـد صقله احتكـاك الماء المتـواصل، فقـد كانت البهيمـة تتشبّث به بـبرائنها للانتقال من المقـدّمة إلى المؤخّـرة، وكان يُسمـع عن كثب لُهاثها اليائس.

كان صخب النّهر وصوت المطر وحركات الحيوان هي كلّ مـا يـربطه بـالكوْن. وأرغمـه مَسْلك البهيمة الجـديـد عـلى التفكـير بسرعة كبرى. فلقد بدت على قسط كبير من الذّكاء بحيث تـظنّ الآن أنّه سوف يقبل التحدّي ويخرج لمواجهتها في حلكة اللّيل.

تُـرى ما كـانت تلك الحيلة الجديـدة؟ أيكـون «الشُّـواريُـون»

مُحقِّين عندما كانوا يتكلّمون على حاسة الشمّ عند الضواري؟

- إنّ القطّ البرّيّ يلتقط رائحة الموت الّتي يحملها كثير من النّاس من غير أن يدروا.

اختلطت بالماء الّذي كان ينفذ من شقوق هيكل الفلوكة قطراتٌ ثمّ وابلٌ نَتِن.

وفهم العجوز أنّ البهيمة قد غدت مجنونة. فلقد كانت تَبُول عليه. وكانت تتربّص به تربُّصَها بفريسة من فرائسها وتعتبره بحكم الميت حتّى قبل أن تكون قد واجهته.

ومرّت ساعات طويلة وثقيلة على هذا النّحو، إلى أنّ تسرّب ضياء خجول إلى داخل ملاذه.

هو، تحت، ممدَّدٌ ومتحقّق من أنّ بندقيّته كانت مُذخَّرة، وهي، فوق، برواحها ومجيئها اللّذين لا يكلّان، وقد زادت خُطاها قِصَراً وتوتُّراً.

وبالاحتكام إلى النّور فلابدّ أنّ الظُّهْر كان قد قارب عندما أحسّ بالحيوان ينزل. ورصد الحركات الجديدة حتّى اللّحظة الّتي أنذره فيها صوت صادر من أحد الجانبيْن بأن البهيمة كانت تحفر تحت الحجارة الّتي كانت تشكّل الدّعائم الّتي تُسند المركب.

فإذ لم يكن يردّ على تحدّي الأنثى فقد عزمت على اقتحام مخبئه عليه.

وتراجع زاحفاً على ظهره إلى طرف الفلوكة الآخر في الوقت المناسب لتفادي المخالب الّتي أخذت تظهر وتخبط على غير هدى.

ورفع رأسه وأسند كعب البندقيّة إلى صدره وأطلق.

واستطاع أن يرى الدّم يتدفّق من قائمة البهيمة فيما كان يُعْلِمُه ألمٌ حادّ في قدمه اليمنى بأنّه أساء تقدير إزاحة ساقيه: لقد أصابته عدّة بُنْدقات في قدمه.

لقد كانا على قدم المساواة، جريحين كليهما.

وسمعها تبتعد فرفع الفلوكة قليلاً مستعيناً بساطوره، رفعها بما يكفي بالضبط لرؤيتها على بُعْد بضعة أمتار وهي تلحس قائمتها الجريحة.

عندها أعاد تذخير سلاحه، وبدفعة واحدة قلب الفلوكة.

وعندما نهض سبّب له الجرح ألماً فظيعاً، وإذ فوجئ الحيوان فقد تمدّد على الصخور وهو يُقدِّر هجومه.

ـ ها أنذا. لُنْهِ هذه اللّعبة اللّعينة دَفْعةً واحدة.

وسمع نفسه يصرخ بصوت لم يكن يعرفه ومن غير أن يعرف تماماً ما إذا كان قد أصدره باللّغة «الشُّواريّة» أو بالإسبانيّة، ثمّ رآها تركض على الشاطئ مثل سهم مُبَقَّع على الرّغم من قائمتها الجريحة.

وجثا العجوز، وإذ وصل الحيوان إلى مسافة خمسة أمتار منه فقد وثب وثبة خارقة وبراثنه وأنيابه في الهواء.

وأرغمته قوّة مجهولة على انتظار أن تبلغ الأنثى أوج طيرانها. وعندئذٍ ضغط على الزّناد. وتوقّفت البهيمة في الهواء وتلوّى جسدها وسقط سقوطاً ثقيلاً وقد انفتح صدرها بفعل العيار المزدوج.

نهض «أنطونيو خوسيه بوليڤار پرووانيو» على مهل. واقترب من الحيوان الميّت وتأثّر لرؤية الطلق وقد مزّقه. فلم يكن صدرُه غيرَ جرح ضخم وقد خرج من ظهره حطام من أحشائه ورئتيْه.

لقد كانت أكبر أيضاً ممّا كان قد ظنّ عندما رآها للمرّة الأولى. وعلى الرّغم من نحولها فقد كانت بهيمة رائعة، وآيةً في الجمال، ورائعةً من روائع السّحر يستحيل نَسْخُها حتّى في الخيال.

ومسح عليها العجوز ناسياً ألم قدمه الجريحة وبكى من الخجل شاعراً بأنّه خسيسٌ ومُحْتَقَرٌ وغيرُ منتصرٍ بأيّ شكل في هذه المعركة.

وإذ غشّت الدموع والمطر عينيْه فقد دفع جسم الحيوان إلى ضفّة النّهر فجرفته المياه إلى أعماق الغابة نحو أراضٍ لم يُقدَّر قطّ أن دنّسها الرّجل الأبيض، نحو ملتقى النّهر بنهر «الأمازون»، نحو المجاري السّريعة الفوّارة حيث ستتكفّل خناجر الحجارة

بتشقيقه جاعلةً إيّاه يستعصي إلى الأبد على متناول المؤذين المناكيد.

ثم ألقى بحنق بالبندقيّة ونظر إليها تغرق من غير مجد، بهيمةً معدنيّة ملعونةً من جميع المخلوقات.

نزع «أنطونيو خوسيه بوليڤار» وجبة أسنانه ولفّها في منديله من غير أن يتوقّف عن لعن الرّجل الأبيض المسؤول عن المأساة، والمحافظ، والمنقّبين عن الذّهب، وجميع الّذين يُدنِّسون بكارة «أمازونيا» هُ، وقطع غصناً غليظاً بضربة من ساطوره فتوّكأ عليه وتوجّه نحو «ألْ إيديليو»، نحو كوخه ورواياته الّتي تحكي عن الحبّ بكلمات هي من الجمال بحيث تُنسيه في بعض الأحيان بربريّة النّاس.

«أرتاتور، يوغسلافيا»، ١٩٨٧
«هامبورغ، ألمانيا»، ١٩٨٨